

ألـــف بـــاء الليبرالية...
والشـــريعة الإســــلامية

عادل المعلم



ألـف بـــاء الليبرالية...
والشريعة الإسلامية

عـــادل المـعـلـم

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - أكتوبر ٢٠١١م



٢٢ شارع الأندلس - مصر الجديدة - بجوار حديقة ماري لاند

تليفون وفاكس : ٢٢٥٦٦٣٧٥ - ٢٢٥٦٦٤٣٥

٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

<shoroukintl@yahoo.com>

http://shoroukintl.com

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية

الفهرسة أثناء النشر

(بطاقة فهرسة)

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

المعلم، عادل.

ألف باء الليبرالية... والشريعة الإسلامية / عادل المعلم.

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١م.

١٥١ص؛ ١٤ × ٢٠سم.

تدمك 978-977-701-067-2

١ ـ الليبرالية.

أ ـ العنوان. ٣٢٠,٥١

رقم الإيداع: ١٦٣٢٦/ ٢٠١١م

الترقيم الدولي: I. S. B. N. 978-977-701-067-2

تصدير

يحق للقارئ أن يعترض من النظرة الأولى على عنوان الكتيب... كيف نقارن بين مذهب إنسانى، وبين تنزيل سماوى؟ أو كما يقول البعض نسبى مع مطلق؟ أو وضعى متغير متطور مع نص محدود ثابت؟... ولكن يبدو أن هذين هما من التيارات الأساسية فى مصر اليوم، اتجاه يدعو لليبرالية، التى جوهرها حرية الفرد قبل كل شىء، قوته فى الإعلام، ومؤيدوه أكثرهم من «العلمانيين»، وكذلك يؤيده الغرب بصفة عامة، واتجاه يدعو لتطبيق الشريعة، الحرية عندهم هى التحرر من أى تشريع أرضى ينتهك التشريع السماوى، ويرددون آية ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، مؤيدوه هم الإسلاميون، ويعارضه الغرب بصفة عامة. وسنحاول هنا التعرف على هذين الاتجاهين.



المحتويات

الموضوع | الصفحة

الليبرالية



مقدمة نظرية

ربما أصبحت مصطلحات الليبرالية، الدولة المدنية، العلمانية من أكثر ما تردده الألسنة اليوم فى وسائل الإعلام المختلفة... وإذا كان معنى مصطلح هو ما اتفق الناس على معناه.. أو حرفيًّا ما اصطلح الناس على معناه، ففى الحقيقة لا ينطبق ذلك تمامًا على تلك المصطلحات الثلاثة، وخاصة أولها الليبرالية الذى اختلف معناه باختلاف الزمان والمكان. قيل الكلمة فى الأساس اشتقاق من الكلمة اللاتينية «Liber» وتعنى «حر»، وقيل تلك الكلمة استخدمت لأول مرة فى مطلع القرن التاسع عشر عندما أُطلقت على أحد الأحزاب السياسية فى إسپانيا، وقد انقسمت لعدة معانٍ فرعية أو مجالات، فمنها الليبرالية السياسية، والليبرالية الثقافية، والليبرالية الاقتصادية وإن تقاطعت مع بعضها. وتطورت الأخيرة من الليبرالية الكلاسيكية (التقليدية) إلى الليبرالية الحديثة«New Liberalism»، ثم بعد ذلك الليبرالية الجديدة «Neo Liberalism»، والتى تقدس السوق والذى صار كما لو كان مفتاح الحياة ومصدر كل قوانينها. واختلفت معانى كل ذلك بين أوروبا والولايات المتحدة، والتى تحمل كلمة ليبرالية فيها معنى من الاستخفاف إن لم يكن الازدراء، باستثناء الساحل الشرقى والساحل الغربى، أما بقية الولايات المتحدة، والتى يمكن تسميتها «حزام الكتاب المقدس ـ Bible Belt» فلا يتفاخر فيها أحد بأنه ليبرالى، وكان ريجان ليبراليًّا من الناحية الاقتصادية على طريقة النيوليبرالية «Neo Liberalism» ومحافظ من الناحية الثقافية

أو الأخلاقية، وكذلك چورچ بوش الابن، وكل منهما حكم ٨ سنوات[١] ويقول البعض: «إن مصطلح الليبرالية هو مرادف لمصطلح المذهب الفردى أو النزعة الفردية «Individualism».. تحولت الليبرالية من فلسفة كانت توصف فى البداية بأنها أيديولوچية الطبقة الوسطى، إلى فلسفة مجتمع قومى مثله الأعلى رعاية مصالح الطبقات المالكة[٢]».

وقبل أن نُلِم بقليل من التفاصيل، علينا أن نتفق أن كلمة التحرر فى اللغة العربية تعنى التحرر من قيود أو سُلطة ـ سواء كانت سياسية/ اقتصادية/ مالية فى صورة قوانين، أو التحرر من أفكار، أو علاقات وأوضاع اجتماعية ضارة ومؤذية، أو على الأقل غير مفيدة، ومفروضة، ثبت عدم صلاحيتها وفائدتها لمصالح الناس أو رغباتهم وسعادتهم. ومن هنا يمكننا أن نتوقع أن يتمتع المصطلح بحيوية تجددية، ترمى دائمًا بالقديم الضار لصالح الجديد النافع، أو حتى القديم غير المرغوب فيه إلى الجديد

(١) جاء فى قاموس «برويرزپوليتيكس» عن الليبرالي: شخص على يسار الوسط، يؤيد تدخل الحكومة فى الاقتصاد، ويعارضه فى المسائل الأخلاقية، وهو لفظ ازدرائى لمن لديهم نظرة طيبة خيرة للطبيعة الإنسانية، وقد تُستخدم كنوع من السب مثلما استخدمه چورچ بوش [الأب] ضد مايكل دوكاكيس فى انتخابات ١٩٨٨، وكان ريجان يُطلق على الليبرالية «كلمة إل ـ The L Word»، [فى ازدراء بمقارنتها بيسارى Leftist] بينما قال چيمس واط وزير داخلية ريجان: أنا لا أستخدم كلمتى جمهورى وديمقراطى، بل هى أمريكى وليبرالى ـ من منشورات كاسل ١٩٩١، صفحة ٣٤٥.
وعندما تعرضت الولايات المتحدة من نهاية ستينيات القرن الماضى لعقد عاصف من الاضطرابات: ارتفاع معدل الجريمة، وانتهاك القانون بصفة عامة وعدم احترامه ولا احترام السلطة العامة، والاعتراض العام على حال المجتمع والسياسة العامة والتقاليد الأمريكية، قال نيكسون وبوكانان: التساهل الليبرالى أصل كل شر ـ ضمير ليبرالى ـ پول كروجان، من منشورات العبيكان، ٢٠٠٩، صفحة ٩٦، ٩٧.

(٢) موسوعة العلوم السياسية ـ جامعة الكويت، طبعة ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ الجزء الأول، صفحة ٤١٠.

المرغوب فيه، فكلما استقر حال أصبح ضارًا، وجب التحرر منه إلى جديد نافع أو جالب للسعادة و/ أو المصلحة. ولكن من هنا أيضًا يمكن أن نتوقع الخلاف على ما هو الضار وما هو النافع والجالب للسعادة، ولمن هو ضار أو نافع جالب للسعادة، فمثلًا ترفض الليبرالية الثقافية منع المرغوب فيه حتى لو كان بعض أنواع المخدرات والجنس خارج الزواج، أو زواج المثليين.

قالت موسوعة بريتانيكا الموجزة عن الليبرالية:

> الليبرالية هى مذهب سياسى اقتصادى يؤكد حقوق وحريات الأفراد، والحاجة لتحديد سلطات الحكومة. نشأت الليبرالية كرد فعل دفاعى لرعب حروب أوروبا الدينية فى القرن السادس عشر[٣] (انظر: حروب الثلاثين عامًا). وصاغت أعمال توماس هوبز وچون لوك الأفكار الرئيسية لليبرالية، فقالا إن سلطة الملوك تقوم على رضا المحكومين فى العقد الاجتماعى المفترض بين الطرفين، وليس على الحق الإلهى للملوك فى الحكم[٤]. وفى المجال الاقتصادى، طالب

(٣) تلك الحروب التى نشأت بين الكاثوليك والپروتستانت، بعد ظهور مارتن لوثر وصيحته المشهورة: البابا عدو المسيح. وقابل ذلك قول الكنيسة الكاثوليكية: لا خلاص خارج الكنيسة.

(٤) سيطرت هذه الفكرة على أوروبا حتى قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٧ - ١٧٨٩)، واستمرت بعدها حتى نهاية القرن التاسع عشر ـ وبعد أن قضت الأنظمة المستبدة فى أوروبا على ثورة ١٨٤٨ التى اجتاحت أوروبا ـ خاصة فى فرنسا نفسها وفى ألمانيا، ولكن بدون السيطرة السابقة، وأساسها بعض نصوص الكتاب المقدس مثل رسالة بولس لروما (الإصحاح ١٣: ١-٢)، ورسالة بطرس الأولى (الإصحاح ٢: ١٣-١٤)، وأقوال بعض آباء الكنيسة، مثل مارسيليو البادوى، وهناك فى الكنيسة آراء أخرى تقول بوجوب خضوع الدولة للكنيسة، بدأت مبكرًا منذ أقوال أوجوستين (٣٥٤-٤٣٠)، والبابا جلاسيوس الأول فى القرن الخامس، والبابا جريجورى السابع فى القرن ١١، وتوما الإكوينى (١٢٠٠-١٢٧٤) مما أدى للصراع المشهور بين الباباوات من جانب والأباطرة والملوك من جانب آخر.

الليبراليون فى القرن التاسع عشر بوقف تدخل الدولة فى الاقتصاد. قال آدم سميث إن الأنظمة الاقتصادية التى تقوم على فكرة الأسواق الحرة، أكثر كفاءة وتثمر رخاء أوسع من التى تتحكم فيها - جزئيًّا - الحكومات. ولكن لما تسبب ذلك فى الفجوة الكبيرة بين الأثرياء والفقراء - خاصة بعد الثورة الصناعية - فى أوروبا وأمريكا الشمالية، طالب الليبراليون فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بتدخل محدود للحكومة فى الأسواق، وأن توفر الحكومة خدمات اجتماعية مثل التعليم العام المجانى، والتأمين الصحى. وجسد ذلك - فى أوسع أشكاله - برنامج «الصفقة الجديدة - New Deal» الذى طبقه الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت [بعد أزمة ١٩٢٩]، حين وسع أنشطة الحكومة الاقتصادية، ووضع الكثير من القيود التى تنظم عالم الأعمال، وصار ذلك نموذجًا لليبرالية الجديدة أو الحديثة [New Liberalism]. توسع تدخل الدولة بعد الحرب العالمية الثانية فى كل من بريطانيا والدول الإسكندناڤية والولايات المتحدة، وظهرت فيها البرامج الاجتماعية لدولة الرفاهية. أدى «جمود - Stagnation» الاقتصاد فى أواخر السبعينيات لإحياء الليبرالية الكلاسيكية (التقليدية) التى تنادى بالأسواق الحرة، وخاصة بين المحافظين فى بريطانيا والولايات المتحدة[٥].

طبعة ٢٠٠٦، صفحة ١١٠٨.

---

(٥) مثل رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر والتى كانت تقول لا يوجد شىء اسمه مجتمع، ورونالد ريجان الذى كان يقول أخطر شىء على أمريكا هو الحكومة الكبيرة، ويقول أيضًا فى نفس الوقت إن فى الكتاب المقدس حل لكل مشاكل أمريكا.

ولكن كيف حمل المحافظون ـ الأعداء التقليديون لليبراليين ـ لواء «النيوليبرالية (الليبرالية المعاصرة) ـ Neo Liberalism»؟

قبل اقتفاء أثر تلك المراوغة، أو ذلك المصطلح المراوغ، يجدر بنا أن نتعرف قليلًا على المذهب المحافظ.

جاء في موسوعة بريتانيكا تحت عنوان «Conservatism»:

أيديولوچيا لأعراف وممارسات تتطورت تاريخيًّا بشكل فيه استمرارية واستقرار [المقصود ليس راديكاليًّا أو جذريًّا]. أول من صاغ أفكارها فى العصر الحديث إدموند بيرك كرد فعل على الثورة الفرنسية [١٧٨٧ ـ ١٧٨٩]، والتى يعتقد بيرك أنها أفسدت مثالياتها بتجاوزاتها. يعتقد المحافظون أن التغيير يجب أن يتم ببطء وبالتدريج، ويعتبرون بالتاريخ، وهم أكثر واقعية من المثاليين. من الأحزاب المحافظة المعروفة[٦]: الحزب البريطانى ـ اتحاد الديمقراطيين المسيحيين الألمانى، الحزب الجمهورى الأمريكى. انظر أيضًا الديمقراطية المسيحية، الليبرالية.

نعود لموسوعة العلوم السياسية، فنجد أنها تقول:

تعرضت الليبرالية وكذلك المذهب الفردى لتفسيرات متعددة ـ كما سبقت الإشارة ـ نتيجة للتطورات التى مر بها النظام الرأسمالى. فقد مرت الليبرالية ـ حتى عام ١٩٢٠ تقريبًا ـ بمرحلتين متميزتين يمكن إيجاز أهم سماتهما فيما يلى:

---

(٦) بصفة عامة، حكمت الأحزاب المحافظة فى أوروبا (بريطانيا وألمانيا وفرنسا) والولايات المتحدة فترات أطول مما حكمت الأحزاب الليبرالية.

المرحلة الأولى: وسادها ما يُعرف بالراديكالية الفلسفية، أى تلك المفاهيم المبكرة لمذهب المنفعة بقوانينه وسياساته المستمدة من مبدأ «أعظم سعادة لأكبر عدد» الذى وضعه الاقتصادى الإنجليزى چيريمى بنتام فى كتابه «نبذة عن الحكم» عام ١٧٧٦، وقصد به تقديم مبدأ أخلاقى جديد كمعيار للقيمة وللتفرقة بين الخير والشر. أما الجانب الاقتصادى لليبرالية فقد تمثل فى نظرية الاقتصاد الكلاسيكى المستمدة من كتاب «ثروة الأمم» لآدم سميث عام ١٧٧٦، والتى أعاد شرحها بإسهاب داڤيد ريكاردو فى كتابه «الاقتصاد السياسى» عام ١٨١٧، وخلاصتها هى الحرية الاقتصادية غير المقيدة، وتعنى فى التطبيق إضفاء القداسة على الملكية الفردية، والأخذ بمبدأ «دعه يعمل، دعه يمر» السابق ذكره(٧). تفترض تلك المفاهيم سوقًا تسودها المنافسة الحرة ويعمل فيها كل مُنْتِج وفقًا لما تمليه عليه مصلحته الشخصية. لكن سعيه هذا يؤدى بالتبعية إلى خدمة مصالح الآخرين كما لو كان هذا يتم بفعل يد خفية ـ على حد تعبير آدم سميث ـ مما يؤدى إلى تحقيق الانسجام الاجتماعى.

---

(٧) ظهرت هذه الأفكار فى شكل ثورة فكرية على أوضاع أوروبا الإقطاعية، والتى كان «عبيد الأرض - Serfs» يمثلون الأغلبية الكاسحة من عدد سكانها، ولم يكن لأى منهم أن يغادر الأرض التى يعمل بها إلا إذا أذن له سيده، وكانت التجارة العامة مكبلة بقوانين ملكية وبرلمانية، تعطى امتيازات احتكارية لقلة قليلة من التجار، ولم يكن هناك ملكية خاصة كما نعرف اليوم، فكل الأراضى تعود ملكيتها للملوك والأمراء، والكنيسة ذات الحظ الأوفر من الأراضى.

على الصعيد السياسى، كانت مفاهيم الراديكالية الفلسفية للمذهب الفردى تعنى فى التطبيق امتناع الدولة نهائيًّا عن التدخل فى النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، واقتصار دورها على الدفاع ضد العدوان الخارجى وحفظ الأمن الداخلى وتنفيذ العقود التجارية والصناعية. أى أنه ليس من صلاحياتها بأى حال دعم التعليم العام أو وضع سياسات للمحافظة على الصحة العامة أو تقديم أية مساعدات اقتصادية أو خيرية من أى نوع كان، انطلاقًا من موقف المذهب الفردى بأن أى تدخل حكومى هو اعتداء على الحرية. وقد سجَّلت هذه المفاهيم الفردية أكبر انتصاراتها التشريعية فى إنجلترا قبيل منتصف القرن التاسع عشر وذلك بإلغاء قوانين القمح، وانتهاج سياسة حرية التجارة عام ١٨٤٦، والتوسع الصناعى المتحرر من كل قيد(٨).

المرحلة الثانية: وتسمى الليبرالية المحدثة [الجديدة ـ New Liberalism] تتسم بأنها كانت بمثابة رد فعل على النتائج الاجتماعية المدمرة لحرية التصنيع غير المنظمة والطليقة من أية رقابة. ويمكن الوقوف على الحالة التعسة التى عانت منها قطاعات واسعة من الشعب الإنجليزى

---

(٨) جدير بالذكر هنا أن بريطانيا والولايات المتحدة من أكثر دول العالم اتباعًا لأساليب الحماية الاقتصادية، قديمًا وحديثًا، ويمكن الرجوع لكتاب «ركل السلم بعيدًا» د.تشانج، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

فى ظل الرأسمالية من التقرير الرسمى الذى رفعته لجنة ملكية إلى البرلمان عام ١٨٤١، ووصفت فيه الأوضاع فى مجال الصناعة بأنها وحشية غير إنسانية، وأشارت بصفة خاصة إلى الأوضاع البشعة لعمال المناجم وتشغيل النساء والأطفال لساعات عمل طويلة وانعدام وسائل الأمان داخل المصانع وانهيار المستويين الصحى والأخلاقى بدرجة تبعث على الاشمئزاز. وقد استجاب البرلمان للضغوط فبدأ يتدخل تدريجيًّا بوضع تشريعات تحد من ساعات العمل المرهقة وتخفف من الظروف الصعبة فى المصانع وترفع الأجور المتدنية(٩).

يمثل تدخل البرلمان بإصداره هذه التشريعات اتجاهًا جديدًا يتعارض مع مفاهيم الليبرالية المبكرة [التقليدية]. وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته بإقدام البرلمان الإنجليزى فى نهاية الربع الثالث من القرن التاسع عشر على نبذ الاتجاه المغالى فيه للمذهب الفردى، والأخذ بنوع من المذهب الجماعى «Collectivism» وإصدار تشريع عن الرفاهية الاجتماعية. وكان لا بد من هذه الإصلاحات لحماية أمن النظام الرأسمالى، وضمان الاستقرار السياسى الذى تعرضت أسسه للاهتزاز نتيجة لفوضى الإنتاج التى تصاحب النظام الفردى الحر، وعدم

(٩) تصور روايات تشارلز ديكنز أحداث بريطانيا فى تلك الفترة، وكذلك يصور كتاب «كيف يعيش النصف الآخر - How the other half lives» لجاكوب ريس أحوال نيويورك فى نهاية القرن التاسع عشر.

توافر الضمانات المتعددة اللازمة لحركة التصنيع الواسعة. وقد تجلت مظاهر الخلل المبكرة للنظام فى أول أزمة اقتصادية كبرى عام ١٨٢٥، ثم أول انتفاضة عمالية منظَّمة فى مدينة لايدن بهولندا فيما بين أعوام ١٨٣٨ ـ ١٨٤٢، ولجوء عمال باريس إلى الصراع المسلح ضد البرجوازية عام ١٨٣٨ ثم فى عام ١٨٧١، وكذلك الثورات العارمة خلال عامى ١٨٣٠، ١٨٤٨، وكلها مؤشرات اقتضت التحرك السريع لتخفيف الاستغلال الواقع على قطاعات واسعة من الشعب وامتصاص موجات الغضب والسخط بالإصلاحات الاجتماعية والسياسية المشار إليها. ويمكن تلخيص الاعتبارات السابقة التى أفرزت الليبرالية المحدثة [الجديدة ـ New Liberalism] فى النقاط التالية:

ـ سخط المزارعين بسبب سياسة حرية التجارة وما ترتب عليها من تضحية بمصالحهم فى سبيل انتعاش التجارة والصناعة، فاضطر البرلمان إلى التدخل لإعادة نوع من الحماية لحاصلاتهم.

ـ تصاعد أهمية الاعتبار الأخلاقى؛ إذ تولدت مشاعر الاشمئزاز والنفور بعد كشف الفظائع والظروف المعيشية غير الإنسانية التى يعانى منها عمال الصناعة فى النظام الرأسمالى.

ـ إفلاس القيم المبكرة للمذهب الفردى وسقوط مصداقيته ومفاهيمه القائمة على حجج المصلحة الذاتية، والمنفعة، والحرية الاقتصادية المطلقة.

هكذا كان على الليبرالية أن تجدد ثوبها حتى تستطيع البقاء، وتحتم على مفكريها إعادة تقويم واسعة لطبيعة الدولة ووظائفها، ومفهوم الحرية، والعلاقة بين الحقوق والالتزام القانونى، أى إعادة تقويم كبيرة لعلاقة الفرد بالمجتمع والسلطة السياسية بحثًا عن مفاهيم أكثر عدالة وإنسانية تتفق مع التيار السائد فى علوم الاجتماع والأخلاق. وقد اتخذت محاولات تحديث الليبرالية شكل موجتين عبرت عن الأولى الفلسفة السياسية لكل من جون ستيورات مِل، وهيربرت سبنسر رغم تعارضهما فى بعض النواحى، بينما عرفت الثانية باسم فلسفة المثاليين من رجال مدرسة أكسفورد التى عبرت عنها بصفة خاصة الفلسفة السياسية لتوماس جرين الذى ظلت آراؤه تحتفظ بتأثير كبير فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٢ ـ ١٩٢٠. وخلافًا للشك التقليدى فى الدولة الذى عبرت عنه الليبرالية المبكرة [التقليدية] المتطرفة فى محاصرتها لصلاحيات الدولة، فإن ليبرالية جرين أو الليبرالية المحدثة [الحديثة] المتأثرة بهيجل والمدرسة المثالية الألمانية كانت قبولًا صريحًا بالدولة كمؤسسة إيجابية تضع التشريعات لدعم الحرية بمفهومها الليبرالى، وخاصة حرية الملكية الفردية، لكن مع وضع بعض القيود على التصرفات الرأسمالية التى أشاعت الغضب وعدم الاستقرار فى المرحلة السابقة، وهددت أمن واستقرار النظام، ولهذا اعتبر جرين أن تفهم الحرية بأسلوب أوسع أفقًا وأكثر أخلاقية يبرر هذه القيود.

لإيجاز ما سبق، وخاصة من المنظور السياسى منذ ثورة ١٦٨٨[١٠]، فإن الملكية الدستورية التى ظهرت فى إنجلترا بعد إصدار وثيقة الحقوق عام ١٦٨٩ كانت حلًّا وسطًا مع النظام الإقطاعى القديم وما تخلف عنه من ممارسات وامتيازات. وفى ظل هذا الشكل من الحكم، لم يكن يستطيع أن يدخل الانتخابات إلا كبار الملاك الذين يمتلكون حدًّا أدنى من زمام الأراضى أو يمكنهم دفع ضرائب معينة. ثم ظهر تدريجيًّا نمط جمهورية دافعى الضرائب فى أوروبا الذى كان ملائمًا لتطور النظام الرأسمالى؛ حيث تمت تصفية البقايا الشكلية الموروثة من الإقطاع والمتمثلة فى النظام الملكى والطقوس والمفاهيم المرتبطة به، علاوة على تمشى هذا

---

(١٠) ثورة ١٦٨٨ فى إنجلترا، قامت كرد فعل خائف من عودة الكاثوليكية لإنجلترا، وجاء فى «الخط الزمنى لتاريخ إنجلترا- The Timeline History of England»: عندما أصدر الملك چيمس الثانى أوامره بقراءة «إعلان التساهل - Declaration of Indulgence» [الذى يسمح للكاثوليك بممارسة الطقوس الكاثوليكية] من كل المنابر، عمَّق مخاوف الناس من نواياه. وبلغت الأزمة قمتها عندما أنجبت زوجته الملكة مارى ذكرًا فى ١٠ يونيه. لاحت مخاوف ولى عهد كاثوليكى، وصاحب ذلك تعيين الملك لبعض الكاثوليك فى مراكز الدولة الحساسة بدلًا من البروتستانت. أدى ذلك إلى دعوة سبعة من قادة النبلاء ويليام أوف أورانج إلى إنجلترا [من هولندا] لتأمين انتخاب برلمان حر، وتأمين حقوقهم البروتستانتية. ركب ويليام البحر، وساقته الرياح البروتستانتية ليهبط فى توربای فى ٥ نوفمبر. تخلى الجيش عن ملكه چيمس الثانى، الذى هرب إلى فرنسا فى ١١ ديسمبر، وألقى بالخاتم العظيم [خاتم الملكة] فى نهر التايمز عند هروبه ـ طبعة بارنز أند نوبل ٢٠٠٣، ٢٠٠٥ - صفحة ٢٦٩، ٢٧٠.

ومن يريد الاستزادة عن تلك الثورة، يمكنه مطالعة رواية ول ديورانت لها فى الجزء ٣٢ من موسوعته «قصة الحضارة» صفحات ١٧٥ - ١٩٣.

الشكل مع الأساس الاقتصادى لتلك المرحلة. واستجابة لردود الفعل القوية بعد الثورات التى اجتاحت القارة[11]، برزت الجمهورية الديمقراطية على أنقاض القيود المكبلة لحقوق الترشيح والانتخاب، وتم الاعتراف بحق الاقتراع العام الشامل[12]. وقد دعت الضرورة إلى هذا الشكل من الحكم بعد أن تفاقم الاستقطاب الاجتماعى، ولتمكين الواجهة الديمقراطية من تخفيف حدة الصراعات وتهدئة خواطر وغضب الطبقات الكادحة وخاصة العمال - كما سبقت الإشارة إليه أعلاه. وقد نال هذا الشكل الأخير تأييد المدافعين عن المفاهيم الليبرالية للنظام الرأسمالى بصفته أفضل تعبير آنذاك عن تقدم الوعى والمدنية والنزعة الإنسانية.

لكن الأزمات المتعددة التى واجهها النظام الرأسمالى أدت مرة أخرى إلى تخلخل الأسس الفلسفية والاقتصادية السياسية التى تقوم عليها الليبرالية، وإلى تعرضها للتفنيد سواء من منتقدى الرأسمالية أو المدافعين عنها تحت واجهات

---

(١١)عندما اجتاحت ثورات ١٨٤٨ القارة الأوروبية، لم يتجاوز عدد الفرنسيين الذين يحق لهم التصويت فى الانتخابات ١٧٠,٠٠٠ من الأثرياء، أى ٠,٥٪ من عدد سكان فرنسا، بينما ارتفع العدد فى بريطانيا إلى ٣٪ من عدد السكان- «١٨٤٨ عام الثورة - Year of 1848 Revolution» مايك رابورت، بازيك بوكس ٢٠٠٨، صفحة٣.

(١٢) لم تشهد معظم دول أوروبا النظام الديمقراطى الذى يحق لكل مواطن فيه الإدلاء بصوته فى الانتخابات إلا فى القرن العشرين، أما الولايات المتحدة، فلم تتمكن المرأة من الإدلاء بصوتها إلا فى عشرينيات القرن العشرين، ولم يتمكن السود من ذلك إلا فى الربع الأخير من ذلك القرن، وذلك قانونيًا أو نظريًا، ولكن عمليًا تقابلهم صعوبات حتى مطلع القرن الحالى.

متباينة. فمن الخارج، تعرضت الليبرالية لتحديات قوية متتابعة من الأيديولوچيات الاشتراكية منذ منتصف القرن الماضى. بينما تعرضت من الداخل ومن بين صفوفها، لتمرد تيارات متعددة من اليمين الرأسمالى المتطرف الذى اتخذ أشكالًا متعددة بدأت بالفاشية والنازية قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، ثم من جانب الليبرتالية «Libertarianism» منذ حوالى عقدين. وتدعو هذه الأخيرة للعودة إلى المفاهيم المبكرة للرأسمالية من حيث الحد من تدخل الحكومة لصالح جماهير الشعب، وإطلاق المبادرة الفردية لرأس المال من كل قيد، وإلغاء الملكيات العامة ووضعها تحت تصرف رأس المال الخاص فيما سمى بالتخصيص. ويعرف هذا التيار المعاصر فى التطبيق باسم الريجانية فى الولايات المتحدة وبالتاتشرية فى أوروبا والعالم الثالث[١٣].

الجزء الأول صفحة ٤١١ - ٤١٣.

بعد هذه المقدمـة النظرية، نلقى نظرة سريعة على مجالات الليبرالية فى أوجه الحياة:

(١٣) ويُطلق عليه «النيوليبرالية (الليبرالية المعاصرة) - Neo Liberalism».

١- الليبرالية السياسية

ظهرت الليبرالية السياسية كثمرة لتطلع الإنسان الأوروبي لمستقبل أفضل مما كان يعاني منه تحت قوى الاستبداد السياسي في العصور الوسطى (القرن الخامس إلى القرن السادس عشر) حتى مطلع عصر التنوير في القرن السابع عشر.

تمثلت تلك القوى في الأمراء والملوك والأباطرة الذين حكموا بمفهوم «الحق الإلهي للملوك-Divine Right»، بالإضافة لقوة الكنيسة التي رأت في البابا ـ المعصوم من الخطأ، والذي من سلطته أن يحلل ويحرم، ويكافئ من يريد بالخلاص، ويحرم من يريد منه، حتى لو كانت قرى أو مدنًا أو دولًا بأكملها ـ وكيلًا للمسيح، أو حتى تجسيدًا للمسيح على الأرض، والمسيح فى العقيدة المسيحية التقليدية السائدة هو الله.

انقسمت أوروبا في تلك القرون لثلاث طبقات: طبقة رجال الدين من الكنيسة - طبقة المحاربين من النبلاء والفرسان - طبقة العامة، وجلهم إن لم يكن كلهم من الفلاحين وهم الأغلبية العظمى الكاسحة من الشعوب.

عاشت العامة في بؤس رق الأرض حتى القرن الثامن عشر، والتاسع عشر في بعض أنحاء أوروبا، لا يستطيعون الانتقال ولا تغيير عملهم إلا إذا وافق سادتهم.

تشارك وتنازع وتبادل السلطة المطلقة في أوروبا الأباطرة والملوك من جانب، والباباوات من جانب آخر.

ففي فرنسا على سبيل المثال، قال لويس الرابع عشر[١٤] ـ الذي يطلق عليه المؤرخون الملك الشمس ـ أنا الدولة! وكان يؤمن بأنه ممثل الله على الأرض! وكان إسرافه وفساده متميزًا مثل استبداده. وفي الأراضي الألمانية رفض فريدريك ويليام الرابع فى ١٨٤٩ التاج الإمبراطورى؛ لأنه جاءه عن طريق مجلس فرانكفورت الوطنى، أى ما يشبه الشعب، أو ما يمثل الشعب، لأن من له الحق الإلهى فى الحكم أكبر وأعلى من أن يأخذه من الشعب. وسبقت إنجلترا بقية أوروبا في أن البرلمان أصبح القوة السياسية القادرة على الوقوف في وجه الملك منذ مطلع القرن الثامن عشر، وإن كان ذلك لا يعنى أنه يهتم بالشعب، بل بمصالح أعضاء البرلمان وبطاناتهم.

ومن الناحية الأخرى، نجد البابا جريجورى السابع يقول: «إن قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر، وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله، إن البابا سيد الأباطرة؛ لأنه يستمد قوته من تراث سلفه القديس بطرس».

كذلك قال فيما يُسمى «الأوامر الباباوية ـ Dictatus Pape»: البابا وحده له سلطة عالمية ـ على جميع الأمراء العلمانين أن يُقَبِّلوا قدم البابا وحده ـ للبابا الحق فى عزل الأباطرة ـ ليس لأى فرد أن يلغي قرارًا باباويًّا

(١٤) حكم لويس الثالث عشر من ١٦١٠ - ١٦٤٣، وابنه لويس الرابع عشر من ١٦٤٣ - ١٧١٥، وابنه لويس الخامس عشر من ١٧١٥ - ١٧٧٤ أى أن ذلك الثلاثي الفاسد المستبد حكم فرنسا لمدة مائة وخمسة وستين عامًا، باسم الحق الإلهى للملوك!

في حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات الناس - لا يُسأل البابا عن تصرفاته - للبابا أن يجيز لرعايا أي حاكم علماني التحلل من العهود وأيمان الولاء التى أقسموها لحاكمهم[١٥].

ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، اضطرار الإمبراطور هنرى الرابع (١٠٨٤ - ١١٠٦) إلى السفر فى شتاء أوروبا القارص من عرشه فى الأراضى الألمانية إلى قلعة كانوسا فى إيطاليا ليمكث ثلاثة أيام فى الجليد حافى القدمين، قبل أن يأذن له البابا جريجورى السابع بالدخول عليه، لينكب على قدمى البابا تقبيلًا وبكاءً حتى يعيده إلى حظيرة المسيحية التى حرمه منها.

وكلفت الحروب الصليبية - داخل الأراضى الأوروبية - ومحاكم التفتيش، ومحاكم الساحرات - تلك الممارسات الكنسية الدموية التى استمرت عدة قرون - أوروبا مئات الآلاف من القتلى، إن لم يكن أكثر. استمر ذلك الطغيان السياسى والقمع الفكرى حتى جاء عصر التنوير.

عصر التنوير

طبقًا لموسوعة بريتانيكا:

> التنوير هو حركة فكرية في القرنين ١٧، ١٨ بحثت في الإلوهية والعقل والطبيعة والإنسان، لتخرج بصياغة

---

(١٥) «أوروبا العصور الوسطى» د. سعيد عاشور، من منشورات مكتبة الأنجلو، الجزء الأول صفحة ٣٣٢، ٦٦٥، ٦٦٦. ومن أقوال البابا أيضًا: الطريق الوحيد لإصلاح العالم وتخليصه من الفوضى والشرور هو إخضاعه للكنيسة، وإخضاع الكنيسة للباباوية - صفحة ٣٣٣.

رؤيـة جديدة للعالـم، أثمرت قـدرات فكرية فى مجالات الفن والفلسفة والسياسة.

أخضع التنوير كل المرجعيات [الأفكار التقليدية] ـ سـواء فى العلـم أو فى الديـن ـ إلى البحـث. أثمـر التنوير نظريات دنيوية حديثة في علم النفس والأخلاق على يد رجال أمثال چون لـوك، وتومـاس هوبـز، وكذلـك نظريات سياسـية جذريـة (راديكالية). سـاهم كل من چون لـوك، وچيرمى بنتام، وچان چاك روسـو، ومونتسكيو، وڤولتير، وتوماس چيفرسـون في تطوير نقد للدولة التسلطية، وفي رسم إطار عام لمنظومة اجتماعية تقوم على أساس الحقوق الطبيعية.

ويجدر بنا أن نلقى نظرة خاطفة على:

أعلام الليبرالية السياسية من التنويريين

* توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩)

أثرت أحوال إنجلترا زمن ميلاد هوبز ونشـأته حتى شيخوخته تأثيرًا بالغًـا عليـه. ولد عام الأرمـادا الذى خـاف الإنجليز فيه من الأسـطول الإسـپانى الرهيـب الـذى أراد غزو إنجلـترا لتحويلهـا إلى الكاثوليكية، بتأييـد مـن البابا وفرنسـا الكاثوليكية، ولمنع قرصنة الشـعب الإنجليزي الذى دأبت أساطيله على سرقة ما تسرقه الأساطيل الإسپانية من أمريكا، ولكن استطاع الأسطول الإنجليزى تدمير أقوى أساطيل أوروپا فى ذلك الوقـت، ومـن بعد تلـك المعركة، صـارت إنجلترا قوة بحريـة، ثم القوة

البحرية الأولى فى العالم. ومن أقوال هوبز الشهيرة: وضعت والدتى توأمين: الخوف وأنا، وقال عن نفسه عند اشتعال الحرب الأهلية: أنا أول الفارين! وفر إلى فرنسا. أهم إنجازات هوبز الفكرية فى عالم السياسة استخدامه لنظرية العقد الاجتماعى[١٦] لتأييد الحكم الملكى المطلق - الذى اعتبره أسمى نظم الحكم وأكثرها كمالًا واستقرارًا - وتأكيده على الحكم القائم على الأساس الشعبى بدلًا من الحق الإلهى.

وأهم كتب هوبز «الڤياثان - Leviathan» وهو اسم من الكتاب المقدس يعنى: «وحش هائل يقضى على بقية الوحوش»، وقصد به هوبز الحكومة القوية التى تسيطر سيطرة كاملة على كل مقاليد الحكم، وقال فى كتابه: «إن أى حكومة تصل للحكم بالقوة هى حكومة شرعية يجب الخضوع لها». ومن طرائف عصر هوبز، أن الطاعون أصاب إنجلترا، واشتعل بها الحريق الكبير بعد نشر كتابه الذى ناقش فيه - من ضمن ما ناقش - الإرادة الحرة للإنسان، وأن الإنسان لم يولد فى الخطيئة، بما يخالف التفكير المسيحى التقليدى، فاتهمه رجال الدين ومن والاهم، بأن الطاعون والحريق من علامات غضب الله على ما كتبه هوبز وطالبوا بمحاكمته، وشكلوا لجنة لبحث كتابه الخطير سبب تلك الكوارث، ولم ينقذه إلا تدخل الملك شخصيًا.

ومن أقوال هوبز الشهيرة عن الطبيعة البشرية: «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان».

---

(١٤) تتلخص نظرية العقد الاجتماعى فى أنها تقدم بديلًا عن الحق الإلهى للملوك فى الحكم، هو رضا الشعب لعقد بينه وبين الحاكم، يقوم على القانون الطبيعى والحقوق الطبيعية، والطبيعة عند بعض التنويريين هى بمثابة الله عند المؤمنين.

* چون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤)

يعتبر لوك أهم المفكرين السياسيين فى عصر التنوير، ومُنَظِّر الحزب البرلمانى الإنجليزى وثورة (١٦٨٨)، وهو أيضًا مصدر إلهام لأفكار الثورة الأمريكية (١٧٧٦)، ولمبادئ الدستور الأمريكى، فهو الرائد الأول للتنوير والليبرالية. جاء لوك من أسرة پيوريتانية[١٧]، وقاتل أبوه فى الحرب الأهلية، وهاجر إلى هولندا لمدة ست سنوات فى نفى اختيارى، عاد بعدها فى ركاب الملكة مارى وزوجها ويليام، وعمل بالحكومة الإنجليزية حتى قرب وفاته. أهم أعماله: «رسالتان فى الحكومة - Two Treatises of Government»، و «رسالة فى التسامح - Treatise of Tolerance».

نادى فى كتابه الأول بإسقاط فكرة الحق الإلهى لحكم الملوك، ورفع شعار العقد الاجتماعى بين الحاكم والمحكومين، ونادى بالحكومة المحدودة فى مؤسساتها وفى صلاحياتها، وقال إن عملها الرئيس هو تحقيق الصالح العالم، بتطبيق القوانين، وحماية الأرواح وحماية الممتلكات، وجادل لوك ليثبت شرعية الملكيات الخاصة، وفند بذلك التقاليد الكنسية والملكية التى كانت ترفض ذلك المفهوم، واعتبر أن الحكم الاستبدادى نقيض الحكم المدنى.

---

(١٧) طائفة پروتستانتية رفضت كثيرًا من ممارسات كنيسة إنجلترا، واعتبرت بعضها كاثوليكيًّا، ونادت بالتطهر منها، وهم من أسباب اشتعال الحرب الأهلية فى إنجلترا. هاجروا إلى أمريكا العالم الجديد، وأنشأوا بها نيو إنجلاند ليحكموا بما أنزل الله، وكانوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار.

أما عمله المهم الآخر «رسالة في التسامح» والذى كتبه في عامى (١٦٦١ - ١٦٦٢)، أو بعد ذلك، والذى اعتبره الكثير من المفكرين والمؤرخين فتحًا في قضية التسامح الدينى في أوروپا، فقد تكلم فيه عن التسامح بين الطوائف الپروتستانتية، ورفض أن يمتد ذلك التسامح ليشمل الكاثوليك، وبالطبع لا اليهود ولا المحمديين الأتراك، أى المسلمين[١٨].

* بارون دى مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥)

عاش في نهاية حكم لويس الرابع عشر، الملك الشمس كما يطلق عليه معظم المؤرخين، والملك المستبد المبذر الفاسد كما يُطلق عليه المدققون. كذلك عاصر نتائج انتصار الثورة الإنجليزية (١٦٨٨) التى أكدت سلطة البرلمان، وتحسر على «مجلس الطبقات - Estates General» الفرنسى الذى لم يستدعيه الملوك من ١٦١٤ حتى وفاته، وإلى قيام الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩.

دافع عن حقوق الأفراد ضد استبداد الحكومات، وبحث فى مسألة فصل السلطات، واعتبر أنها الضمان الأساسى لحرية الأفراد، وقال بأن هناك ثلاث سلطات رئيسية فى كل حكومة: السلطة التشريعية: تصدر القوانين، السلطة التنفيذية: تختص بالشئون الخارجية، السلطة القضائية: تطبق القانون.

أكد مونتسكيو على نسبية القوانين، بمعنى أنها يجب أن تتشكل وفقًا للأوضاع والظروف والبيئة فى كل مجتمع، وعاداته وتقاليده، والتى سماها مجتمعة «روح القوانين»، وذلك فى كتابه الشهير بنفس الاسم.

---

(١٨) ترجم هذا الكتاب عن اللاتينية الدكتور عبد الرحمن بدوى، ونشرت تلك الترجمة المتميزة مع مقدمة الدكتور بدوى المستفيضة لها، دار الغرب الإسلامى بالتعاون مع اليونسكو، وأعادت مكتبة الشروق الدولية نشره.

ورأى مونتسكيو أن الحرية السياسية هى حرية التصرف فى حدود القوانين فى ظل حكومة تعمل وفقًا للقوانين وليس الأهواء، وقال إن القانون المدنى هو ذلك القانون الذى يضعه المجتمع ليحكم العلاقة بين أفراده.

دافع مونتسكيو عن الرق وعن استرقاق العبيد من أفريقيا، بل وأصبغ عليه شرعية مسيحية؛ حيث يقول فى كتابه «روح القوانين» بكل صراحة:

شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم تر بدًّا من استعباد شعوب أفريقيا لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة .. والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة أنوفها فطساء فطسًا شنيعًا، ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله قد وضع روحًا داخل جسم حالك السواد... من المستحيل أن نفترض أن هؤلاء الناس بشر... لأننا إذا افترضنا أنهم بشر فإننا سنبدأ فى الاعتقاد بأننا لسنا مسيحيين[١٩].

* چان چاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨)

ربما كان روسو من أهم المفكرين السياسيين على الإطلاق، وهو رجل المتناقضات فى حياته وفى آرائه وكتاباته، وفى تفسير المؤرخين لأعماله وآرائهم فيه.

فمفكر الثورة الفرنسية ـ الذى مات قبل اندلاعها بعقد واحد (١٧٨٧ ـ ١٧٨٩) اعتبره البعض مدافعًا عن الفردية، والبعض الآخر

---

(١٩) الفكر السياسى من أفلاطون إلى محمد عبده ـ د. حورية مجاهد، الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٩٢ صفحة ٤٣٦.

مدافعًا عن الجماعة على حساب الفردية، وهو المدافع الحقيقى عن الديمقراطية، وعند البعض بل هو المدافع عن الشمولية ... هل هو ثورى أم محافظ... مادى أم روحى؟ ... وهكذا.

كابد روسو ابتلاءات الحياة، فقد هاجر جده البروتستانتى (الهوجونوت) من باريس إلى جنيف هربًا من اضهاد الكاثوليك والحروب الدينية التى أصابت فرنسا (١٥٦٢ - ١٦٢٩). ماتت أمه بعد ولادته مباشرة، ثم تركه أبوه وترك جنيف كلها، فتولى خاله تربيته. تنقل فى صغره بين كفلاء وأرباب عمل مختلفين، حتى دخل ديرًا فى إيطاليا، وتحول من البروتستانتية إلى الكاثوليكية، ولكن هرب بعد ذلك من الدير بسبب فساد رهبانه، وعاد فيما بعد إلى البروتستانتية.

التحق بالعمل لدى سيدة فى نهاية عقده الثانى، ووجد عندها فرصة القراءة والتعلم، ثم عاد لفرنسا ليعمل فى ليون ثم باريس، وسنحت له فرصة الوصول لرجال الأدب والفلسفة. تزوج وأنجب أطفالًا، ألقى بهم جميعًا فى ملجأ لقطاء لضيق ذات اليد، أو لرغبته فى التحرر وعدم التزامه مسئولية أبنائه فى قول آخر، خاصة بسبب علاقاته الغرامية المتعددة والشاذة.

عندما قتل زلزال لشبونة فى عام ١٧٢٥ كثيرًا من المصلين فى الكنيسة وآلافًا خارجها، ألقى باللوم على حياة البرتغاليين الفاسدة التى جلبت عليهم الزلزال.

بدأ نجمه يبزغ عندما قدم بحثًا فريدًا للإجابة عن مسابقة فلسفية محورها : هل أفسدت العلومُ والفنون الأخلاقَ أم أصلحتها؟.

كفلت له الجائزةَ إجابتُه الصارخة: إنها علة فساد الأخلاق، وإن ما يراه الناس تقدمًا وحضارة ما هو إلا تخلف أخلاقى ومعنوى.

ومن يومها، بدأت كتابات روسو تدعو للعودة للحالة الطبيعية الأولى للبشرية، التى سادت فيها الفضيلة التى أفسدتها الحضارة.

وكتب روسو عن إله الطبيعة بما يخالف أقوال الكنيسة الكاثوليكية، خاصة قوله إن البشر ولدوا أخيارًا طيبين وليس فى الخطيئة الأصلية، الأمر الذى وجدته الكنيسة ينفى معنى وهدف صلب المسيح، فأدانه كبير أساقفة باريس، وأصدر أمرًا بالقبض عليه.

وعلى عكس چون لوك، رأى روسو فى الملكية الخاصة السبب الرئيسى لكل أمراض المجتمع.

ثم بدأ روسو ـ الذى يراه الكثيرون من أعلام عصر التنوير ـ يهاجم كثيرًا مما اعتبره الفلاسفة تنويرًا، وكثيرًا ما دخل فى صراعات مع ڤولتير.

أخذ روسو فى نقد الأحوال القائمة نقدًا جذريًا، ورأى أن الأوضاع فى عصره تقنن الظلم والتفاوت فى أحوال الناس المادية وتقضى على المساواة، وانتقد اتفاق السلطة الدينية مع السلطة السياسية على الحق الإلهى للملوك فى الحكم.

شرع روسو فى صياغة أهم أعماله: «العقد الاجتماعى» وتساءل فيه: ولد الإنسان حرًا، ولكنه الآن مكبل بالأغلال فى كل مكان، فكيف حدث هذا؟ وكيف أصبح مشروعًا؟. طرح روسو آراءه فى الحرية والمساواة والسيادة الشعبية ـ وجعلت الثورة الفرنسية شعارها: الحرية ـ الإخاء ـ

المساواة[٢٠]- ورأى حاجة المجتمع إلى عقد اجتماعى يتنازل بموجبه الأفراد عن إرادتهم الخاصة لحساب إرادة جماعية، تُسمى جمهورية أو دولة، وعلى الأفراد «المواطنين» الخضوع لقوانين الدولة.

ورأى أن الديمقراطية تناسب الدول الصغيرة، والأرستقراطية تناسب المتوسطة، بينما الملكية تناسب الكبيرة.

هاجم العبودية بشدة، فكان صوته نشازًا فى عصره، عصر التنوير.

وأباح ثورة الشعب عند سلب حريته، ومع ثوريته الواضحة، فقد قال إن الحكومة الديمقراطية تناسب شعبًا من الآلهة، والحكومة الكاملة لا تناسب الآدميين، كذلك قال - كما لو كان يريد إيقاع قارئه فى مزيد من الحيرة وإيقاع نفسه فى مزيد من التناقض -: إذا جعل الشعب لنفسه ممثلين، فقد حريته وفقد وجوده.

قضى روسو سنواته الأخيرة هاربًا فارًّا، وسيطر عليه شعور بالاضطهاد، ربما مصاحبًا لشعور بجنون العظمة، واستقر فى النهاية فى إنجلترا، وتملكه شك فى أن الكنيسة الكاثوليكية وفلاسفة التنوير، وحتى جميع أصدقائه القدامى يتآمرون ضده. ذلك العبقرى الذى أحب الطبيعة، وأحب عامة الناس - الذين كثيرًا ما رجموه بالحجارة - أمضى بقية أيامه فى التأمل فى نزهات طبيعية، رأى أنها تقربه من الله، وذلك الماجن جنسيًّا، رق قلبه وسمت عواطفه، واقترب من الله كما لو كان قطبًا صوفيًّا، أو قديسًا، فقال وهو على فراش الموت: دعوا النافذة

(٢٠) ولكن هذا الشعار لم يمنعها من إخراج الجيوش الفرنسية لغزو الكثير من الدول الأوروبية والأفريقية والآسيوية.

مفتوحة... انظروا كيف صفت السماء كما لو كانت بوابتها مفتوحة لى؟ وكأن الله ينتظرنى!

* چون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٢)

من أهم مفكرى القرن التاسع عشر، وأهم المفكرين الإنجليز فى ذلك القرن بلا منازع، وأحد أعلام الليبرالية الغربية.

هو أكبر أبناء چيمس ميل، أحد موظفى شركة الهند الشرقية، تلك الشركة التى غيرت تاريخ العالم عندما بدأت بالتجارة مع الهند، ثم تتطورت أعمالها فى القارة الهندية حتى سيطرت على كل مقدراتها السياسية والاقتصادية والمالية، وتحولت إلى قوة احتلال ذات جيش هائل من المرتزقة، واستطاعت القضاء التام على صناعة المنسوجات الهندية، فتحولت الهند إلى أكبر مستورد للمنسوجات البريطانية بعد أن كانت ورشة العالم لصناعة المنسوجات، وضربت الشركة رسومًا على كل واردات وصادرات الهند(٢١). عمل چون الابن فى نفس الشركة التى عمل بها أبوه، وتتدرج فى مناصبها حتى أصبح ثانى شخصية بها. وكما تبع چون أباه فى العمل فى شركة الهند الشرقية، فقد تبعه فى اقتناعه بمذهب النفعية الذى فصَّل چيرمى بنتام ملامحه.

لكنه بعد ذلك تخلى عن ذلك المذهب ووضع تعريفًا فلسفيًّا للسعادة، نافيًا أن تكون بمثابة ثمرة مادية يمكن قطافها، بل هى حالة يمكن الوصول إليها بممارسة الأعمال الأخلاقية الصائبة.

(٢١) من يريد الاستزادة، يمكنه قراءة كتاب «الشركة التى غيرت العالم: كيف بنت شركة الهند الشرقية الإمبراطورية البريطانية» نك روبينز، من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

وضع جون ستيوارت ميل عدة كتب يدافع بها عن مصالح عامة الشعب بعد أن بدأت آثار الليبرالية الاقتصادية فى إلحاق أبلغ الأذى والضرر بها، خاصة بعد الثورة الصناعية واستغلال رأس المال الطائش والطائح لأبسط الحقوق الإنسانية، وأهم هذه الكتب «عن الحرية ـ On Liberty»، وكتب كذلك «عن الحكومة التمثيلية ـ On Representative Government».

ورأى أن واجب الحكومة العمل على تحقيق السعادة لأكبر عدد من الشعب، وأن تلك السعادة ليست محصورة فى الماديات، ولكنها فى ممارسة الفضائل، ورأى أن تلك السعادة هى الأسمى والأجدر بالإنسان.

أهم إنجازاته الفكرية، وهى الخاصة بالحرية، ظهرت كرد فعل على ما رآه فى إنجلترا القرن التاسع عشر من بؤس وفقر، وقهر فكرى لعامة الشعب، وخاصة للنساء، ونادى بضرورة كفالة الحريات الثلاثة: حرية العقيدة وإبداء الرأى: وذلك فى المسائل الدينية بصفة رئيسية، والمسائل السياسية والاقتصادية.

حرية العمل: طالب بالتحرر من الاحتكارات والامتيازات التى تكفلها الحكومة أو الملكية لقلة من الأفراد، بينما ترزح غالبية الشعب فى خدمة سادتهم.

حرية التجمع: لتكوين نقابات أو اتحادات عمال، أو جماعات سياسية.

ولكن رائد الحرية خاف من السماح للأغلبية الجاهلة أن تختار البرلمان!.

٢- الليبرالية الاقتصادية

مـرت الليبرالية الاقتصادية بثـلاث مراحل رئيسـية: الليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية، ثم الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»، ثـم أخيـرًا «النيوليبراليـة (الليبراليـة المعاصـرة) ـ Neo Liberalism»، والأخيـرة ظهـرت أفكارها المبدئية فى منتصف القـرن الماضى وتطورت حتى بدأ ريجان تطبيقها فى الولايات المتحدة، وتاتشر فى بريطانيا، ورفعت السوق إلى مقام مقدس حتى قيل للسوق «يا إلهى ما أعظم قدسيتك!».

ونبـدأ فى تصفح تطور تلـك الليبرالية من بداية عصـر التنوير، حتى عصر العولمة فى كلمات قليلة.

عاشـت معظـم أوروبا تحـت نظام الإقطـاع فى اقتصـاد مغلق لعدة قـرون، فانتظـم المجتمع تحت مظلة الإقطاع فى ثلاث طبقات رئيسـية كمـا عرفنـا سـابقًا (رجـال الكنيسـة ـ الأمـراء والفرسـان ـ العامة وهم الغالبيـة الكاسـحة، جلهم ـ إن لـم يكن كلهم ـ فلاحون، يعيشـون فيما يشبه الاكتفاء الذاتى من الضروريات فى الإقطاعيات والعزب).

لم يكن لدى معظم الناس فى تلك المجتمعات المغلقة فى العصور الوسطى مـن طموحـات أو حتـى تطلعات كـبرى، كانـت أفكار الكنيسـة عـن المتع الدنيوية سـلبية، حتى إنها كانت تـرى الجنس بين الزوجين أمرًا غير مرغوب فيه، وكذلك شـككت فى أرباح التجارة هل هى حلال أم حرام؟ واسـتندت

لآية فى الإنجيل يقول فيها المسيح: إنه لأسهل أن يدخل الجمل فى ثقب إبرة من أن يدخل الغنى ملكوت الله. وكان من الفضائل إنكار كل المتع الدنيوية الحلال، وكبت كل تطلعات الفرد الدنيوية، وأرادت الكنيسة رعية لا تفكر ولكن تطيع، وهل يريد ملوك الحق الإلهى فى الحكم شعوبًا أفضل من ذلك؟.

حتى جاء عصر إعادة الميلاد، وللأسف هذا المصطلح الإيطالى تمت ترجمته بطريقة خاطئة تمامًا ـ مثل غيره من المصطلحات ـ إلى عصر النهضة[٢٢]. بدأ عصر إعادة الميلاد فى إيطاليا فى القرن ١٢ أو ١٣، ومنها انتقل لبقية أوروبا حتى القرن ١٥ أو ١٦. ومحور ذلك العصر هو الإنسان. ذلك الإنسان الذى سحقته الكنيسة وأنظمة الحكم، أصبح مع عصر إعادة الميلاد أهم ما فى الوجود...والاهتمام به بإعادة إنسانيته، والاعتراف بقدراته وملكاته على الإبداع، وبحقه فى التمتع بالدنيا... فى كل شئون حياته.

صاحب ذلك أن بدأت التجارة تزدهر بين أوروبا وبقية العالم ـ نتيجة أسباب كثيرة متنوعة، منها ما رآه الصليبيون من تقدم الحياة فى الشرق الأوسط، مع التقدم النسبى فى وسائل النقل والانتقال، حين ظهرت طرق شبه ممهدة، مع استخدام أفضل لحيوانات النقل باستخدام السروج والركابات، والعربات المجرورة البدائية، مع التقدم النسبى فى صناعة السفن بأجهزتها الملاحية وتزويد الملاحين بخرائط أدق ـ فزادت تطلعات الناس لحياة أفضل فى كل أوجه المعيشة، من منازل لأطعمة لملابس، لبعض المشغولات اليدوية ولبعض الكماليات النسبية، وبدأت التجارة تجتذب أعدادًا أكبر، كذلك بدأت الحرف فى التوسع وفى اجتذاب أعدادٍ أكبر للعمل بها.

---

(٢٢) الكلمة الإيطالية هى: «Rinascimento»، وبالفرنسية هى «Renaissance»، وتعنى فى اللغتين إعادة الميلاد، وعنت فى الواقع الرجوع للثقافتين والحضارتين الإغريقية والرومانية.

ومـع ذلك التطور النسـبى، بـدأت البلدات والمدن تجتذب سـكانًا أكبـر من الإقطاعيات والعزب والقرى. ولكـن عاكس ذلك التطور رق الأرض، فالغالبيـة العظمـى مـن الناس يعملون لحسـاب سـادتهم من الإقطاعييـن فـى الزراعـة، والقليل فى الحـرف اليدوية، وليـس لديهم الحرية فى الانتقال لأى عمل آخر فى أى مكان آخر.

ومع زيادة التجارة مع الشرق، بدأت إسپانيا والبرتغال فى البحث عن طريق يصل للشـرق الأقصى ـ للحصول على كنوزه من التوابل وغيرها التى عاينها الصليبيون فى الشـرق الأوسـط، بدون المرور على الشـرق الأوسـط حتى توفـر الضرائـب التى كانـت تدفعها لتجـاره وحكوماته، وبدأ عصر الاستكشاف البحرى غربًا، والذى أهدى أمريكا للمغامرين، بمـا حوته من مناجـم فضة وذهب، وأراضٍ زاخرة بـكل ثروات الطبيعة المعدنيـة والزراعيـة والحيوانية، فتدفقت سـبائك الفضـة والذهب إلى إسـپانيا، فانتعشـت خزائنهـا، وأنعشـت معها جيرانهـا، وبـدأ القراصنة الإنجليز فى سرقة الكنوز التى سرقتها السفن الإسپانية من أمريكا.

أنشـأت هولندا شـركة الهند الشـرقية، وتلتها إنجلترا لتستحوذ على الهند وتمد يدها الطويلة لبقية شرق آسيا، وكذلك فعلت فرنسا.

فـى هـذا السـياق التاريخي ظهـر رائـد الليبراليـة الاقتصاديـة الإسكوتلاندى: آدم سميث [٢٣].

---

(٢٣) آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠): فيلسوف كتب فى الأخلاق والاقتصاد السياسى. درس فى جامعة جلاسجو ثم أكسفورد، وصادق داڤيد هيوم الفيلسوف والمؤرخ الإسكوتلاندى.

كتب «نظرية فى العواطف الأخلاقية - Theory of Moral Sentiments»، =

أ- الليبرالية التقليدية أو الكلاسيكية

أول الليبراليات الاقتصادية ظهورًا.

نادت بعدم تدخل الحكومة فى الزراعة والتجارة والحرف، أى الاقتصاد بصفة عامة، وتحرير الناس من رق الأرض، ومن احتكارات الأعمال التجارية والحرفية التى ميزت بها الحكومة بعض الأفراد والشركات.

بدأ آدم سميث بالمناداة بها، وأيده بعد ذلك وطور فكرته داڤيد ريكاردو، وچون ستيوارت ميل. ظهرت فكرتها مع كتاب سميث فى (١٧٧٦)، وظهرت آثار تطبيقها الرهيبة على المجتمع الإنجليزى بعد حوالى نصف قرن من اتباعها، خاصة أنها صاحبت الثورة الصناعية، والإنتاج بالجملة، فتسلط رأس المال وطغى واستبد، وبدأت التمردات والانتفاضات والثورات تشتعل فى أوروبا والولايات المتحدة، فانزعج البعض لأحوال البؤس والشقاء والفقر التى عاشت فيها الشعوب الصناعية، وفى مقدمتها إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة؛ مما أدى إلى ظهور مفكرين ليبراليين مصلحين،

= ثم سافر إلى فرنسا بصحبة أحد طلابه - الذى أصبح دوقًا فيما بعد - والتقى المفكرين الفرنسيين فى عصره، ودرس بضع سنوات حتى استطاع أن يقدم أهم كتبه «البحث فى طبيعة وأسباب ثروات الأمم - Inquiry into The Nature and Causes of The Wealth of Nations» (١٧٧٦) ونادى فيه بحرية الناس فى العمل، وأنهم يحققون مصالح المجتمع ككل عندما يتركون أحرارًا فى السعى وراء مصالحهم، وحاجج بأن هناك «يد خفية - Invisible hand» تصحح مسارات الانحراف والإخفاق فى السوق، وذلك أفضل من سيطرة الملك والبرلمان الإنجليزى على كل الأمور التجارية والاقتصادية، واحتكارهم إعطاء الامتيازات فى التجارة والصناعات الحرفية لمن يريدون. دعم فى كتابه المبدأ الذى نادى به «الفيزيوقراط - Physiocrats» الفرنسيون: «دعه يعمل - Laissez Faire». أصبح كتابه بمثابة «الكتاب المقدس - Bible» للرأسمالية على حد قول موسوعة بريتانيكا.

ينادون بتدخل الحكومة لإنقاذ الجماهير، وذلك بفرض ضرائب على الأثرياء والشركات الكبيرة، ومساعدة الشعب فى سد احتياجاته الضرورية فى السكن والطعام والعلاج والتعليم، وإعانات البطالة والمرض والتقدم فى العمر.

ب- الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»

ظهرت كرد فعل لما آلت إليه أحوال الشعوب فى بلاد الرأسمالية الصناعية الحديثة: إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، حيث كشر رأس المال عن أنيابه ومخالبه، وفرض شروطه القاسية على العمالة الفقيرة الضعيفة؛ مما سبب الكثير من الانتفاضات والتمردات والثورات(٢٤).

أحسن بعض الليبراليين بأنه لا بد من معالجة الأحوال وتصحيح المسار

---

(٢٤) على سبيل المثال، نشبت فى فرنسا ثورتان فى ١٨٣٠، ١٨٤٨ مع كثير من الاضطرابات والانتفاضات، ومنها انتفاضتان مسلحتان فى ١٨٣٨، ١٨٧١، وعمت ثورة ١٨٤٨ الكثير من دول أوروبا: فرنسا، النمسا، ألمانيا، إيطاليا وغيرها. وقد استطاعت أنظمة الحكم استعادة سيطرتها فى كل دول الثورة بعد مرور حوالى عشرة أشهر أو أقل من اشتعالها. وفى بريطانيا دمر العمال العاطلون «اللوديون» ماكينات النسيج الحديثة التى اعتبروها سبب بطالتهم فى ١٨١٢، ثم ١٨١٦، وفى ١٨١٩ نشبت مواجهة بيترلو الدامية فى مانشستر، وكشف إحصاء يوم القيامة الجديد «New Domesday» فى ١٨٣٧ أن سبعة آلاف إنجليزى يملكون ٨٠٪ من الأراضى، وأضرب عمال الميناء فى لندن لمدة شهر فى١٨٨٩. وفى الولايات المتحدة، سجَّل المؤرخ هوارد زن فى كتابه «التاريخ الشعبى للولايات المتحدة» حالة القمع والفقر والبؤس التى عاشها الشعب، وسجلت الفصول: «الحرب الأهلية الأخرى ـ لصوص وثوار ـ الإمبراطورية والشعب ـ التحدى الاشتراكى» الفترة القاسية من ١٨٣٩ - ١٩١٤.

ونكتفى هنا بما قاله إجناتيوس دونلى فى المؤتمر الوطنى لحزب الشعب فى سان لويز ١٨٩٢: نلتقى اليوم وأمتنا على حافة انهيار أخلاقى وسياسى ومادى، فالفساد يهيمن على صناديق الاقتراع، والصحف إما مدعومة من الحكومة وإما مكممة، والرأى العام مقموع.. والعمل كاسد، وبيوتنا تكبلها الديون، والأرض فى أيدى الرأسماليين... الأغنياء يسرقون فى صفاقة عرق الملايين يومًا بعد يوم.. إن ثمة طبقتين تخرجان من رحم الظلم الحكومى: الفقراء والمليونيرات- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة، هوارد زِن، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، جـ١، صفحة ٤٥١.

لئلا تحدث انتكاسة إلى النظام الاقتصادى القديم، أو إلى المسار الشيوعى.

بدأ المفكرون الليبراليون ينادون بتدخل محدود للدولة فى المسار الاقتصادى، وبتدخل الدولة لتساعد على سد الضروريات الأساسية للفقراء: الطعام والمسكن والملبس، والعلاج والتعليم.

توج ذلك الاتجاه فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة بعد أزمة ١٩٢٩ التى طحنت بلاده وأصابت أوروبا، فتقدم بمشروعه الذى سماه «الصفقة الجديدة ـ New Deal».

أيقن روزفلت أن ترك الحياة المالية والاقتصادية لقوى السوق دمرهما، ودمر معهما الحياة الإنسانية الكريمة، فوضع شعارًا إنسانيًّا جديدًا هو العمل للتحرر من الحاجة، فذل الحاجة يقضى على كرامة الإنسان وحريته، ومن ثَمَّ إنسانيته، وإذا لم تحافظ الحكومة على إنسانية مواطنيها فماذا بقى لها أن تعمله؟![٢٥]

طبق روزفلت أفكار عالم الاقتصاد الإنجليزى چون ماينارد كينز للوصول إلى أعلى حدود لتشغيل الطاقة العاملة، ووضع برنامجًا واسعًا أسس به «دولة الرفاهة ـ Welfare State»، فوضع نظامًا جديدًا للضرائب المتصاعدة

---

(٢٥) وربما وضع روزفلت نصب عينيه وفى قلب ضميره المقالة الخالدة لمارى إلين ليس:
وال ستريت تملك البلاد، لم تعد الحكومة حكومة الشعب لكنها حكومة وال ستريت.. وقوانين البلاد هى نتاج نظام يُجل الأوغاد على حساب الشرفاء. كل عام يموت عشرة آلاف طفل جوعًا، وتجبر أكثر من مائة ألف فتاة على بيع شرفها مقابل الطعام.. هناك ثلاثون رجلًا تربو ثروة الواحد منهم على المليار ونصف المليار من الدولارات، وأكثر من نصف مليون شخص يبحثون عن عمل.. لقد فاض بالناس الكيل، ألا فيحذر كلاب المال الذين لا يزالون يطاردوننا - المصدر السابق، صفحة ٤٥٠.

على الأثرياء وأصحاب الدخول العالية، ووضع قيودًا على أعمال البورصة ليمنع جشع وطمع رأس المال وتلاعب المضاربين بأموال الشعب[٢٦]، وأنشأ وكالات حكومية جديدة لاستعادة حيوية الاقتصاد، وبناء الطبقة الوسطى، منها وكالة لخفض البطالة، ووكالة ثانية لتنشيط الإنتاج الصناعى، وثالثة لضبط ومراقبة أسواق المال، ورابعة لدعم الإنتاج الزراعى، وأخرى لتوليد الكهرباء والتحكم فى الفيضانات، ثم أنشأ فى المرحلة الثانية من «الصفقة الجديدة» وكالتين لرعاية العمال، وأسَّس نظام الضمان الاجتماعى.

مثلت فترة تشريع الصفقة الجديدة فى مرحلتيها (١٩٣٣ - ١٩٣٥، ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦) أساس تحول الولايات المتحدة من دولة:

> «موسومة باللامساواة الاقتصادية الجسيمة، ومحطمة من الحزبية السياسية المريرة»، ومن فترة «اللامساواة التى ليس لها نظير فى أى مكان آخر فى العالم المتقدم» إلى فترة «الانضغاط الكبير» [يقصد الفترة التى تلت برنامج الصفقة الجديدة] حين تم «تضييق فجوات الدخل»، وكانت تلك الفترة بمثابة «بيان

(٢٦) بعد أن أزالت «النيوليبرالية (الليبرالية المعاصرة) ـ Neo Liberalism» آخر تلك القيود انهارت بورصة وال ستريت منذ سنوات قليلة، وقال جرينسبان رئيس الاحتياطى الفيدرالى السابق: إنى أرى الصرح الذى بنيناه ينهار. جاء فى القرير الذى أعدته لجنة خاصة ـ طبقًا لقانون كشف الخداع والاستعادة [الاقتصادية والمالية]، الذى مرره الكونجرس واعتمده الرئيس ـ عن الأزمة المالية فى أمريكا أن المؤسسات المالية أنفقت ٢,٧ بليون دولار لتعظيم مصالحها فى الأعوام من ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٨، ويعلق مصدر التقرير على ذلك: لا تُدهش اللجنة قوة تأثير مؤسسات التمويل على الإدارة والكونجرس! صدر التقرير تحت اسم: The Financial Crisis Inquiry Report بتاريخ يناير ٢٠١١ عن دار نشر PUBLICAFFAIRS فى نيويورك.

عملى يبين أن الإصلاح السياسى يستطيع أن يخلق توزيعًا للدخل أكثر عدلًا، ويستطيع فى سياق عملية الإصلاح أن يخلق مناخًا أصح للديمقراطية ... الانضغاط الكبير تبعه فى الحقيقة أعظم انتعاش اقتصادى مستمر فى تاريخ الولايات المتحدة. وزيادة على ذلك فإن إدارة روزفلت أبانت عمليًا أن إحدى الحجج النموذجية التى تساق ضد التدخل فى الاقتصاد على نطاق واسع لم تكن صحيحة، وهى القول بأن التدخل على نطاق واسع سيقود لا محالة إلى فساد مساوٍ على نطاق واسع[٢٧]».

أوروبا والليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism»

ربما سبقت معظم بلاد أوروبا الغربية الولايات المتحدة في تطبيق الليبراليه الحديثة التي تقوم فيها الحكومة بدور فعال لصالح الشعب وحمايته من طغيان رأس المال.

وربما كانت ألمانيا بيسمارك (المستشار الحديدى) فى نهاية القرن التاسع عشر من أوائل الحكومات الأوروبية الحديثة التى خططت لنزع فتائل غضب وتمرد الشعب، فأسس برنامجًا إصلاحيًا شاملًا[٢٨]، فى نفس الوقت الذى قاد فيه «الصراع الثقافى ـ kulturkampf ـ Culture

(٢٧) هذه الفقرات من كتاب ضمير ليبرالى، پول كروجمان الاقتصادى الشهير، من منشورات العيكان للنشر، طبعة ٢٠٠٩، صفحات: ١٠، ١٥، ٤٤، ٤٥، ٧٠.

(٢٨) قال پول كروجمان: أدخل أوتو ڤون بيسمارك رواتب تقاعد الشيخوخة وتأمين البطالة، بل أدخل التأمين الصحى الوطنى فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وقد تصرف من حساب سياسى لا من [دواعى] الرحمة، لقد أراد أن يحول دون المعارضة المحتملة لحكم القيصر، ولكنه بفعله ذلك أظهر أن وجود حكومة أكثر رحمة كان فى الحقيقة أمرًا ممكنًا ـ ضمير ليبرالي، صفحة ٢٧.

Struggle» وهو صراع ثقافى مرير لإخضاع الكنيسة الكاثوليكية لسلطة الدولة الناشئة، وحتى يضمن ولاء الكاثوليك للدولة.

كانت لفرنسا بعض الميول الاشتراكية منذ فرانسيس بابيف (١٧٤٦ - ١٧٩٧) الذى شارك فى الثورة الفرنسية فكريًّا وعسكريًّا - ودعا لنظام اشتراكي يقوم على أساس المساواة المطلقة، والملكية العامة للأراضى، وتوزيع الناتج القومى بين المواطنين. كذلك دعا الاشتراكى الأشهر فى ذلك العصر، سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٥٠) - والذى شارك أيضًا فى الثورة الفرنسية، وقبلها فى الثورة الأمريكية على الإنجليز، فكريًّا وعسكريًّا - وإن لم تكن أفكاره جذرية بدرجة بابيف، وربما عاشت أطول لهذا السبب - دعا إلى الاهتمام بتقدم المعرفة خاصة العلمية، والعمل خاصة الصناعى، وإلى صياغة دستور جديد ومجتمع جديد يتخذ العلماء ورجال الصناعة فيه صدر الدولة بدلًا من الأمراء ورجال الكنيسة .

واحتلت بريطانيا مكانًا وسطًا بين ألمانيا من جانب، والولايات المتحدة - التى اشتهرت فى معظم تاريخها، سوى فترة الصفقة الجديدة من ١٩٣٢ إلى السبعينيات من القرن الماضى، بأن بها أعلى لامساواة فى العالم الصناعى - فقدم روبرت أوين أفكارًا اشتراكية - ونادى بالتخطيط على أسس أخلاقية، وإلى أن تشارك كل الطبقات فى شئون الدولة وخيراتها.

ت- النيوليبرالية، أو الليبرالية المعاصرة (Neo Liberalism)

طبق الرئيس فرانكلين روزفلت برنامجه «الصفقة الجديدة» على الرغم من المعارضة الشرسة للمحافظين وأصحاب رؤوس الأموال، وسار نائبه هارى ترومان - بعد أن خلفه رئيسًا - على نفس الطريق.

ثم جاء أيزنهاور، رئيس من الحزب الجمهورى، ولم يكن من صقوره، وكانت الأغلبية المحافظة فى الحزب الجمهورى قد تأقلمت - على مضض - على دولة الرفاه ومؤسساتها وأعرافها، واستمر الحال كذلك حتى أواخر السبعينيات من القرن الماضى، حين تولى پول فولكر رئاسة مجلس الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى فى نهاية حكم كارتر، وبدأ به المد الجديد لحكم رأس المال، وتخلى الحكومة عن مسئولياتها الاجتماعية تجاه الشعب، والعمل بشعار «صدمة فولكر»، ثم حملة الشعارات التى أطلقها كل من ريجان بعد توليه الرئاسة (١٩٨٠ - ١٩٨٨)، وتاتشر فى بريطانيا بعد توليها رئاسة الوزراء (١٩٧٩ - ١٩٩٠): الحكومة الصغيرة هى أفضل حكومة - تدخل الحكومة هو المشكلة وليس الحل - السوق الحر والاقتصاد الحر هو الوسيلة الوحيدة للتقدم ولحرية المواطنين، وأضافت تاتشر شعارها «ليس هناك بديل - Ther is no alternative» والذى تم اختصاره (T I N A)، فقالت بحتمية المشروع الاقتصادى الحر فى المسار الإنسانى. حطم كل منهما بقايا الاتحادات النقابية والعمالية، فلم يعتبرا أن الناس أحرار فى إنشاء الاتحادات والنقابات، وحطما بذلك قدرة الموظفين والعمال على المطالبة بتحسين أحوالهم، بل وحتى على المطالبة بحقوقهم، وسخر ريجان من كل برامج المساعدة الحكومية حتى إنه اخترع قصص منفرة عمن سماهم الانتهازيين الذين يثرون من الإعانات الحكومية للفقراء والعاطلين، بينما قالت تاتشر: لا يوجد شىء اسمه المجتمع.

ولكن كيف استطاع ريجان وتاتشر تحقيق ذلك؟

لقد عمل الاثنان فى ضوء نظرية جديدة لخصها داڤيد هارڤى فى كتابه «A Brief History of Neo liberalism» الذى أصدرته جامعة أكسفورد فى ٢٠٠٥، وترجمته العبيكان فى ٢٠٠٨:

> الليبرالية الجديدة فى المقام الأول نظرية فى الممارسات السياسية والاقتصادية، تقول بأن الطريقة المثلى لتحسين الوضع الإنسانى تكمن فى إطلاق الحريات والمهارات التجارية الإبداعية للفرد، ضمن إطار مؤسساتى عام يتصف بحمايته الشديدة لحقوق الملكية الخاصة، وحرية التجارة، وحرية الأسواق الاقتصادية. ويقتصر دور الدولة فى هذه النظرية على إيجاد وصون ذلك الإطار المؤسساتى الملائم لتلك الممارسات. يتحتم على الدولة ـ مثلًا ـ ضمان قيمة وسلامة الموارد المالية، وعليها إقامة الهيكليات والوظائف العسكرية والدفاعية والأمنية والقضائية المطلوبة لحماية حقوق الملكية الفردية، واستخدام القوة إن اقتضت الحاجة لضمان عمل الأسواق بالصورة الملائمة... تعتبر الليبرالية الجديدة علاقات السوق قيمة أخلاقية بحد ذاتها، قادرة على أن تكون دليلًا للفعل الإنسانى وبديلًا من كل المعتقدات الأخلاقية... فتسعى إلى إدراج كافة الأفعال الإنسانية ضمن حيز السوق.

أى أن وظيفة الدولة الأولى هى حماية رأس المال وإطلاق حريته فى الأسواق، مع استخدام القوة إذا لزم الأمر لتحقيق ذلك، وقيم الأسواق هى البديل عن كل القيم الأخلاقية السابقة؟!.

«ولكن» الثانية هنا:

ولكن كيف أمكن لمثل هذه النظرية الرأسمالية المتطرفة أن تسود الدوائر الحاكمة فى الولايات المتحدة، ومن سار بحذاها مثل بريطانيا، ومن تبعها من حكومات فى أمريكا الجنوبية والشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا؟.

تبدأ الملحمة من أربعينيات القرن الماضى، حين اجتمع فى منتجع مونت بيليران أربعة من الفلاسفة من أوروبا (ثلاثة من النمسا) وأمريكا: فريدريك ڤون هايك، ولودڤيج ڤون ميسز، وكارل بوبر، وميلتون فريدمان..

تم فى ذلك الاجتماع التفكير فى المستقبل تحت وطأة عدة كوابيس: هيتلر وموسولينى، والحرب العالمية الثانية، وستالين وفظائع الشيوعية، وامتدادها من الاتحاد السوڤييتى إلى أوروبا الشرقية أو الشيوعية.

شغل بال الفلاسفة الأربعة أمرًا اعتبروه أهم ما فى الإنسانية: الحرية، ولذلك اعتبروا أنفسهم ليبراليين بالمفهوم الأوروبي التقليدى، أى أنهم ليبراليون جدد[٢٩]، حتى يفصلوا أنفسهم عن الليبرالية الحديثة التى

(٢٩) هل اختطفوا عن عمد مصطلح الليبرالية الساحر الجذاب من البداية؟ أم أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يتحالفوا مع المحافظين واليمين المسيحى فى الولايات المتحدة فى مواجهة القوى الليبرالية (ولو حتى على الطريقة الأمريكية) بها؟ مع الأخذ فى الاعتبار أن مصطلح ليبرالى جذاب فى أوروبا وليس فى أمريكا، وطبقًا لاستطلاع رأى پيو فى يونيه ٢٠١٠، أفاد ٤٠٪ من الأمريكيين أنهم يُعرِّفون أنفسهم على أنهم محافظون، و٣٦٪ على أنهم معتدلون، و٢٢٪ فقط على أنهم ليبراليون.

سادت ـ منذ نهاية القرن التاسع عشر، وحتى بداية الربع الأخير من القرن العشرين ـ فى أوروبا والولايات المتحدة، ونادت بتدخل الدولة فى الاقتصاد والتمويل، وبإقامة دولة الرفاهية.

رأى هؤلاء الفلاسفة أن تدخل الدولة لا بد وأنه سيكون منحازًا لجماعات الضغط والمصالح الخاصة، وأنه ليس للدولة، أى دولة، القدرة على الإلمام بكل تفاصيل الحياة الاقتصادية والمالية، فكيف تستطيع التخطيط الشامل لها؟.

ناسبت تلك الأفكار تطلعات المؤسسات الكبرى وأصحاب الأموال فى الولايات المتحدة؛ حيث كانت البيئة الراسخة الكارهة ـ إن لم تكن المعادية ـ لتدخل الحكومة وخاصة من «الواسب – White Anglosaxon Protestant»، وبدأت تلك الأموال تؤسس مراكز الفكر التى تخدمها وتبسط تمويلها ـ ومن ثَمَّ تأثيرها إن لم يكن نفوذها ـ على الجامعات الأمريكية.

بدأت الحركة تدريجيًا تعادى مشروع روزفلت «الصفقة الجديدة»، أى الليبرالية الجديدة أو الحديثة «New Liberalism» ولا تكتفى بتصحيحه أو الانفصال عنه، وقد وجدوا سندًا لهم فى أمثال ويليام بكلى الذى أصدر فى ١٩٥٥ كتابه المشهور «الله والإنسان فى جامعة يال» أدان فيه الجامعة لما رآه فيها من اتجاهات معادية للمسيحية فى التعليم، مع تدريسها للاقتصاديات الكينزية، وأصبح بكلى شخصية قومية مشهورة بكتابه ذلك؛ مما مكنه من أن يؤسس فى ١٩٥٥ مجلة «ناشيونال ريڤيو»، التى صارت بمثابة أول منابر الليبرالية الجديدة.

يقول كروجمان فى كتابه:

ويجدر هنا أن نلقى نظرة على الأعداد الأولى من مجلة «ناشيونال ريڤيو» لنحصل على إحساس بالكيفية التى بدا عليها محافظو الحركة قبل أن يتعلموا التحدث بحديث مصوغ فى إشارات ورموز. فالشخصيات القيادية اليوم فى اليمين الأمريكى هم سادة ما يدعوه البريطانيون «علم سياسة صافرة الكلب» أو الكلام المُرَمَّز، فهم يقولون أشياء تستهوى جماعات معينة بطريقة لا تستطيع فهمها إلا الجماعات المستهدفة فقط، وبذلك فهم يتجنبون أن يصير التطرف فى مواقفهم واضحًا وضوحًا عامًّا. وكما سنرى فيما بعد فى هذا الفصل، كان رونالد ريجان قادرًا على أن يعطى إشارة تعاطف مع العنصرية العرقية من دون أن يقول علانية أى شىء عرقى. وكما سنرى فيما بعد فى هذا الكتاب، فإن چورچ دبليو. بوش [الابن] يستخدم على نحو ثابت لغة تبدو فى أسوأ أحوالها متكلِّفة قليلًا لمعظم الأمريكيين، ولكنها مفعمة بالمعنى بالنسبة إلى أشد المتطرفين، المتطرفين المتدينين تطرفًا إلى آخر أيام الدنيا. ولكن مواقف «ناشيونال ريڤيو» فى الأيام الأولى كانت تبين بيانًا أكثر انفتاحًا.

وهكذا ففى العام ١٩٥٧ نشرت المجلة افتتاحية تحتفى بتصويت تم فى مجلس الشيوخ، كان سيساعد

الجنوب، كما اعتقدت المجلة، على الاستمرار فى حرمان السود من حق الانتخاب:

«السؤال المركزى الذى يبرز، هو ليس سؤالًا برلمانيًا أو سؤالًا يجاب عنه بمجرد مراجعة مسرد حقوق المواطنين الأمريكيين الذين ولدوا متساويين، هو: هل كان المجتمع الأبيض فى الجنوب مخولًا أن يتخذ مثل هذه الإجراءات حسب ما يكون ضروريًا ليسيطر سياسيًا وثقافيًا، فى مناطق لا يهيمن عليها عدديًا؟ والجواب الرصين هو نعم، إن المجتمع الأبيض مخول بذلك؛ لأنه فى الوقت الحاضر هو العرق المتقدم....

إن توكيد المعايير المتمدنة والعيش بموجبها أكثر أهمية لأى مجتمع، وفى أى مكان فى العالم، من الانحناء لمطالب الأكثرية العددية. وأحيانًا لا تستطيع الأقلية العددية أن تسيطر إلا بالعنف: وآنئذ يجب عليها أن تقرر إن كانت سيطرة إرادتها تستحق الثمن المزعج للعنف».

و«مسرد حقوق الأمريكيين، الذين ولدوا متساوين» الذى استبعدته الافتتاحية، سيكون هو، على ما يرجح، الوثيقة المعروفة باسم دستور الولايات المتحدة!. وما [هو الأمر] الذى كانت تشير إليه الافتتاحية حين تكلمت عن «الثمن المزعج للعنف» الذى قد يكون أحيانًا جديرًا

بالدفع إذا لم يكن المجتمع يريد أن يتراجع؟ لقد أوضح ذلك ويليام بكلى فيما بعد فى العام ١٩٥٧، فيما كتبه بعنوان «رسالة من إسپانيا»:

«الچنرال فرانكو بطل قومى أصيل. ومن المسلم به عمومًا أنه امتلك -فوق أمور أخرى- مزيجًا من المواهب، والدأب، والإحساس بالحق فى قضيته، وهى الصفات التى كانت مطلوبة لينتزع إسپانيا من أيدى الواهمين، والأيديولوچيين، والماركسيين، والعدميين الذين كانوا يُفرضون عليها فى الثلاثينيات، وهو نظام غريب جدًّا إلى درجة يرتكب فيها العنف ضد الروح الإسپانية، وينكر كل شىء حتى هوية إسپانيا التاريخية».

و«النظام الغريب جدًّا» الذى طاح به القائد العام فرانسيسكو فرانكو، مع مساعدة حاسمة من موسولينى وهيتلر، كان فى الحقيقة هو حكومة إسپانيا المنتخبة ديمقراطيًّا.

والطرق التى استخدمها فرانكو لحماية «روح» إسپانيا اشتملت على القتل الجماعى، وعلى إرسال المعارضين السياسيين، وإرسال أى مشبوه بأنه معارض سياسى، إلى معسكرات الاعتقال. ولم يكن هذا كله فى الماضى حين امتدح بكلى الدكتاتور! فكما يلاحظ

المؤرخ پول بريستون، كان خصوم فرانكو «ما زالوا خاضعين لرعب الشرطة والإعدام»، حتى وقت متأخر من السبعينيات.

في نصف القرن الذى مر منذ نشر تلك المقالات، تعلم محافظو الحركة أن يكونوا أكثر حذرًا. فى هذه الأيام يزعمون أنهم أبطال الحرية والاختيار الشخصى.

ولكن الحركة من البداية كانت غير ديمقراطية بشكل عميق، وكانت مهتمة فوق كل شىء بالدفاع عن الدين والمِلكية. فالفصل الأول من كتاب «الله والإنسان فى جامعة يال» ينتقد الجامعة بشدة لعدم كونها «موالية للمسيحية»، والفصل الثانى كان معنونًا «الفردية فى يال» كان هجومًا بشكل رئيسى على الأساتذة الذين درَّسوا الاقتصاديات الكينزية ـ صفحة ١١١، ١١٢، ١١٣.

لم تكن «ناشيونال ريڤيو» إلا الخطوة الأولى فى بناء ـ و/ أو شراء ـ نخبة المفكرين الذين يؤيدون ذلك الاتجاه ويخدمونه.

واعتمدت الحركة على التمويل السخى من أثرياء الولايات المتحدة، الذين يطمعون فى ضرائب وأجور وقيود أقل، ليجنوا أرباحًا أكبر.

قاد الحركة ميلتون فريدمان من جامعة شيكاجو، وإيرڤينج كريستول ـ اليسارى سابقًا والذى أصبح الأب الروحى لها ـ وأنشأوا مؤسسات فكر مثل «الصالح العام ـ Public Intrest»، و«معهد

المشروع الأمريكى ـ American Enterprise Institute»، و«پروسپكث ـ Prospest»، وبعد ذلك «مؤسسة التراث ـ Hertiage Foundation» وصار تأسيس مراكز الفكر التى تخدم تلك الحركة أمرًا مربحًا؛ إذ مولتها كثير من المؤسسات التى تتربع على قمة قائمة فورتشن لأغنى ٥٠٠ شركة فى العالم.

زاد زخم الحركة بحصول هايك على جائزة نوبل فى الاقتصاد فى ١٩٧٤، ثم حصول فريدمان عليها فى ١٩٧٦، وصادف ذلك دخول الاقتصاد فى كساد، وارتفاع التضخم لتصبح فائدة البنوك سالبة، وهنا أصبح «على الطبقات العليا [الثرية] التحرك بشكل حازم وحاسم لحماية نفسها من الإبادة السياسة والاقتصادية» بكلمات هارڤى ـ صفحة ٣٣.

جاء فولكر رئيسًا للاحتياطى الفيدرالى الأمريكى، فاهتم بالقضاء على التضخم أكثر من البطالة، فانخفاض التضخم يفيد الثروة ورأس المال، بينما انخفاض البطالة يفيد بسطاء الشعب، وبدأ التخلى عن سياسات كينز التى أخرجت أمريكا من أزمة ١٩٢٩، والتى صنعت أكثر فترات التاريخ الأمريكى مساواة وعدالة اجتماعية لمدة أكثر من أربعة عقود، وبدأ المد المعاكس فى زيادة اللامساواة وزيادة ثروات الأغنياء مع زيادة بؤس الفقراء، وعودة أمريكا التقليدية، أمريكا القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين .

ولكن لم تكن أموال الأثرياء والمؤسسات الأغنى، مع مراكز الفكر والجامعات التابعة لها، وتبشيرها بجنة الليبرالية المعاصرة

«Neo Liberalism» تكفى، كان لا بد من الاعتماد على قاعدة شعبية، ولا بد من التمثيل السياسى.

وبكلمات هارفى:

كان الحزب الجمهورى[30] بحاجة إلى قاعدة انتخابية صلبة لاحتلال مواقع السلطة بشكل فاعل، وفى تلك المدة تقريبًا سعى الجمهوريون إلى التحالف مع اليمين المسيحى[31].

وفى هذه الفترة، جاءت تاتشر فى بريطانيا، وجاء ريجان فى أمريكا.

بدأ عهد جديد فى الحركة بوصول تاتشر وريجان للحكم، فقادا حكومتيهما لآفاق جديدة، وبالطبع عمل صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى على نشر النظرية التى أشار إليها هارفى سابقًا فى صفحة ٤٧، والنظام الذى تنادى به، وصاحب ذلك تيار العولمة.

ريجان وتاتشر وبول فولكر
وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى والخزانة الأمريكية

قاد الثلاثى الأول عالم الاقتصاد النيوليبرالي منذ بداية ثمانينيات القرن الماضى، وكانت أدواتهم مؤسسات الثلاثى الثانى.

---

(٣٠) حامل الفكر المحافظ الجديد«Neo Conservatism» الذى تشارك معه فى بعض القضايا الفكر الليبرالى الجديد«Neo Liberalism».

(٣١) يمثل اليمين المسيحى أكثر من ٤٠٪ من سكان أمريكا، والأصوليون منهم حوالى ٣٧٪، انظر كتاب «أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا» ـ صفحة ٣٦٢، «كيف نفهم الأصولية الإيفانجليكية؟» والكتاب الأول من منشورات مكتبة الشروق الدولية والمجلس الأعلى للثقافة، والثانى مكتبة الشروق الدولية.

وبهذا الثلاثى، استطاعت الولايات المتحدة باتباع سياسة الترغيب والترهيب، أو العصا والجزرة، الضغط على كثير من دول العالم ـ أو اصطيادها ـ لاتباع النيوليبرالية.

أغفل الفكر النيوليبرالى استخدام فكرته السابقة عن عجز أى حكومة عن جمع بيانات كافية، لتضع بها خطط كافية لتنشيط الاقتصاد، ورأى أن بمقدور الصندوق والبنك جمع بيانات كافية عن العالم، ووضع النظام المالى والاقتصادى الذى يصلح لمختلف دول العالم!.

ريجان جمهورى محافظ حتى النخاع، وكذلك تاتشر رئيسة حزب المحافظين البريطانى، وفولكر جاء فى آخر أيام كارتر ليضع أولويته الأولى ثروات ودخول الأثرياء على حساب البطالة ومصالح الطبقة الوسطى وما دونها.

يروى كروجمان فى كتابه «ضمير ليبرالى» من خطاب مشهور لريجان فى عام ١٩٦٤ نيابة عن جولدواتر ـ مرشح الرئاسة الخاسر ـ هاجم فيه العون المقدم للأسر التى تضم أطفالًا قُصَّر «بقصة عن امرأة لها سبعة أطفال أرادت الطلاق لأن شيكها سيكون أكبر من راتب زوجها، وهى قصة زعم أنه سمعها من قاضٍ لم يسمه فى لوس أنجلوس!. وأظهر ريجان قسوة قلب لافتة بقوله: قيل لنا منذ أربع سنوات إن ١٧ مليون نسمة كانوا يأوون إلى الفراش جوعى فى كل ليلة ـ وهو يشير فى هذا إلى قول الرئيس

چون كنيدى ـ وقال ريجان: حسنًا.. من المرجح أن ذلك كان صحيحًا.. لقد كانوا جميعًا يتبعون حمية [ريچيما[٣٢]]» ـ صفحة ١١٤، ١١٥.

برع ريجان كرئيس، وتبعه فى ذلك چورچ بوش الابن، فى حشد قوى أصحاب الأعمال الكبرى، مع الواسپ «الأنجلو ساسكون پروتستانت البيض ـ White Anglosaxon Protestant» وبخاصة اليمين المسيحى، مع المجمع العسكرى الصناعى، بإثارة مخاوفهم من الاتحاد السوفييتى ـ إمبراطورية الشر[٣٣] ـ وخسارتهم ممتلكاتهم وأموالهم، ورفع الكتاب المقدس فى يده قائلًا ومكررًا: فى هذا الكتاب حل مشاكل أمريكا.

أما الفقراء، فقد كرر وأكد أن اللوم يقع عليهم، فهم مسئولون عن فقرهم بسبب تقاعسهم فى حق أنفسهم، وهو قول تقليدى قديم فى أمريكا، وكرر وأكد أن خفض الضرائب على الأثرياء وأصحاب الدخول العالية هو الوسيلة الرئيسية لتنشيط الاقتصاد، وذلك طبقًا لحكمة النيوليبرالية التى تقول بأن ازدياد ثروات الطبقة العليا، سيؤدى حتمًا إلى انسكابها لتصب على من تحتها، وأنه لا بد من وجود نسبة بطالة حتى تنضبط الأجور وتخرج أفضل طاقات العمل[٣٤].

---

(٣٢) عاينا مثل هذا التكبر والاستهتار بأحوال الفقراء فى أقوال عائلة مبارك ومن حولهم: الشعب المصرى لا يريد أن يتحرك ـ المصرى عايز يقعد جنب أمه ـ المصريين عايزين ياخدوا كل حاجة من غير ما يشتغلوا ـ المصريين اتعودوا على الشكوى.

(٣٣) أما بوش الابن فوضع الإرهاب الإسلامى وعلى قمته بن لادن بدلًا من الاتحاد السوفييتى، وأعلن عن حرب مفتوحة المكان والزمان ضده، مع رفض لتحديد المقصود بالإرهاب.

(٣٤) اقتبس حسنى وجمال مبارك كثيرًا من ذلك التوجه فى العشرين سنة الأخيرة.

عاد ريجان بأمريكا لتسلك سبيل اللامساواة المتفاقمة الذى سلكته طوال تاريخها، باستثناء فترة فرانكلين روزفلت وبرنامجه «الصفقة الجديدة» والعقود الأربعة أو الخمسة التى تبعته.

أفاض باحثو مراكز الفكر وأساتذة الاقتصاد النيوليبرالى فى تأكيد أن أزمة ١٩٢٩ كان سببها الرئيسى تدخل الحكومة، مخالفين كل المعلومات التاريخية الصحيحة عن تلك الفترة، والتى سخرمنها فرانكلين روزفلت قائلًا كيف تكون أفضل حكومة هى الحكومة التى لا تبالى بالشعب؟!.

وأفرد پول كروجمان فصلًا فى كتابه سماه «الافتراق الكبير»، فصَّل فيه أثر السياسة النيوليبرالية فى العودة القوية لتلك اللامساواة المتصاعدة، وقد عاين وقاسى الشعب المصرى آثار السياسة المثيلة التى طبقها جمال مبارك والعصابة التى جمعها حوله، حتى إنها مثلت أحد الأسباب الرئيسية لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

توالت أزمات تطبيق النيوليبرالية فى أمريكا الجنوبية وآسيا، وظهرت مآس وانهيارات أصابت الدول التى: «حررت الاقتصاد»، والتى اتبعت «إجماع واشنطون[٣٥]»، والتى «أعادت هيكلة الاقتصاد»، و«تبعت روشتة البنك الدولى الإصلاحية»، و«نفذت برامج التكييف البنيوى للاقتصاد»، و«حررت أسواق المال بامتياز» كوارث اقتصادية واجتماعية، وأمثلة لها: المكسيك ـ الأرجنتين ـ شيلى ـ تايلاند ـ إندونيسيا ـ ماليزيا.

---

(٣٥) إجماع واشنطون: يمكن تلخيصه فى البنود الآتية: خفض عجز الموازنة (وهذا لا تعمل به حكومة واشنطون) ـ تحرير الأسواق للتجارة (وهذا أيضًا تخالفه واشنطون إذا احتاجت لذلك مثلما فعلت فى الصلب) ـ تحرير حركة رؤوس الأموال من أى قيود ـ تنمية اقتصاد يتجه للتصدير (وازدات أمريكا أعلى من صادراتها).

والجدير بالذكر أن أولى الدول فى جنوب شرق آسيا خروجًا من أزمة ١٩٩٧ ـ ١٩٩٨ كانت ماليزيا التى رفضت روشتة علاج البنك الدولى وعملت بعكسها.

أما أمريكا نفسها ، فقد ساءت أحوالها الاقتصادية بنهاية فترة چورچ بوش الابن ،حتى فضلت رئيسًا أسود[٣٦] على المرشح الجمهورى الأبيض؛ لأن غالبية الشعب الأمريكى رفضت نتائج النظام الذى وضع بذرته ريجان، ولم يستطيع كلينتون الخروج عنه، بينما يحاول أوباما الآن إصلاحه.

وجدير بالذكر هنا ثلاث شهادات أمريكية عن النيوليبرالية:

أولاها كتاب صدر لأستاذ الاقتصاد الأمريكى الحاصل على جائزة نوبل د. چوزيف ستيجليتز، بعنوان: «السقوط الحر (الانهيار): أمريكا، الأسواق الحرة، وغرق الاقتصاد العالمى ـ «Free Fall: America, Free Markets, and the Sinking of the World Economy». وكذلك كتب مقالًا فى مجلة «ڤانيتى فير» عن آثار تحرير الأسواق فى أمريكا: ١٪ يحصدون ربع الدخل ويكدسون ٤٠٪ من الثروة، وربط تلك اللامساواة الهائلة بالتطرف اليمينى والعنصرى فى أمريكا[٣٧].

---

(٣٦) عندما أراد أوباما تعيين قاضية من أصل إسپانى (لاتينو)، اعترض بعض الجمهوريين بحجة أنها عنصرية ضد البيض، وأفلت تقدير عن نسبة أصوات أوباما بين ذوى الأصل الإسپانى، أظهر أنها حوالى ٩٠٪، وبالطبع يمكن استنتاج أن أصوات كل الملونين (الإسپان والسود والآسيان) بالإضافة للمسلمين، كانت بنفس النسبة أى حوالى ٩٠٪، وهم يقاربون ٤٠٪ من الشعب الأمريكى، ويعنى هذا أن البيض صوتوا لصالح ماكين بنسبة حوالى ٦٠٪.

(٣٧) ألقى چوزيف ستيجليتز محاضرة بمكتبة الإسكندرية فى أغسطس ٢٠١١، قال فيها إن الاقتصاد الليبرالى الجديد فشل، وانتقد سياسات صندوق النقد والبنك الدوليين، وقد نشرت الأهرام مقتطفات من أقواله فى الصفحة ٢١ لعدد ١٣ أغسطس ٢٠١١.

والثانية لجيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكى الأسبق قال فيه: لولا القوة العسكرية الأمريكية، واستخدام العالم للدولار كعملته الدولية لأفلست أمريكا. وهذا التصريح نشرته جريدة الأهرام فى ٣٠ أبريل ٢٠١١.

وثالثها تصريح أدلى به جرينسپان، رئيس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى السابق بعد أزمة وال ستريت الأخيرة، قال فيه: إنى أرى الصرح الذى بنيناه ينهار[٣٨].

ويحق للمرء أن يتعجب أن حكومة ما بعد الثورة ـ طبقًا لتصريحات الوزير السابق سمير رضوان ـ ما زالت تقتدى وتتبع النموذج النيوليبرالى فى الاقتصاد، حتى إن الوزير صرح مرة: لا ردة عن نظام السوق الحر...! أى إن من يختار نظامًا اقتصاديًا مختلفًا عن النيوليبرالية، يكون بمثابة من يرتد عن دينه! ويعترض على الضرائب المتصاعدة قائلًا: ده كلام مصاطب! وأيده فى ذلك فورًا مؤسس أحد الأحزاب الليبرالية الجديدة قائلًا: إن حزبه يرفض الضرائب المتصاعدة!.

---

(٣٨) تحمل الشعب الأمريكى أعباء عبث وطمع رجال المال فى وال ستريت، كما تحملها من قبل أيام أزمة القروض والمدخرات (S & L) تحت حكم ريجان. وجاء فى تقرير الأزمة المالية ـ الذى أشرنا إليه سابقًا ـ أن القطاع المالى حصل على ٢٧٪ من إجمالى أرباح المؤسسات الأمريكية!

٣- الليبرالية الثقافية

جوهرها هو حق كل شخص فى التحرر من أى قيم ثقافية أو دينية، وأن يفعل ويقول ما يناسبه، ما دام لم يسبب ضررًا لأحد بذاته، ولا اعتبار هنا للمجتمع، فحسب قول تاتشر لا يوجد شيء اسمه المجتمع.

تنادى بحرية العقيدة، فلكل شخص الحق فى اتباع الدين الذى يريده، أو عدم اتباع أى دين على الإطلاق.

وتنادى بحرية ممارسة الجنس، وحرية تشكيل الأسرة بزواج الرجال وممارستهم الجنس معًا، وبزواج النساء وممارستهن الجنس معًا.

كذلك تنادى بحرية الحامل فى إجهاض نفسها، وبالطبع تنادى بحرية تناول المخدرات.

تعارض الليبرالية الثقافية أى نوع من الرقابة، سواء كانت على الكتب أو المسرح أو السينما والتليفزيون، وعلى كل أنواع الفنون وما يُسمى «الآداب الإباحية!» بصفة عامة.

٤- الليبرالية الإمبريالية

هذه الإمبريالية الطريفة، التى يعنى عنوانها الإمبريالية التحررية، هى عنوان مدخل جاء فى قاموس برويرز پوليتيكس، يتحدث عن أعضاء البرلمان الإنجليزى الليبراليين الذين أيدوا الإمبريالية، ونصه:

«هم أعضاء البرلمان الذين أيدوا التوسع الإمبريالى البريطانى ـ دون أن يذهبوا بعيدًا فى ذلك مثلما ذهب جوزيف تشمبرلاين ـ وأخذوا جانب المحافظين من أمثال إسكويث، إدوارد جراى، وآر. بى. هالدان، وكان أكثرهم بروزًا وتصميمًا على الإمبريالية اللورد روزبيرى».

وجدير بالذكر أن تلك الليبرالية الإمبريالية اعتمدت على قاعدتين أساسيتين: البروتستانت أصبحوا شعب الله المختار، وبقية العالم مُستبعد من اختيار الله، والثانية هى داروينية البقاء للأصلح، والتى نسج منها بعض العلماء نظريات عن تفوق العرق الأبيض.

ومن هاتين القاعدتين، سك الإمبرياليون عدة مفاهيم لاستباحة الآخر ـ أرضه، ماله، عمله، وإذا لزم الأمر نفسه ـ حمل الرجل الأبيض، مسئولية الرجل الأبيض، نشر المسيحية، نشر الثقافة المسيحية.

الخلاصة

إذا أردنا وصف النيوليبرالية، أو الليبرالية المعاصرة بكلمات قليلة، يمكننا القول بأن قلبها وعقلها حرية الفرد، والفردية، قبل أى شىء، وبالتأكيد قبل المجتمع، وقول تاتشر مشهور: وليس هناك شىء اسمه المجتمع، ولذلك فإنها لا تهتم كثيرًا بالمساواة ولا تهتم طبعًا بالعدالة الاجتماعية، بل ترفض كل ما يُقيد الحريات الاقتصادية والمالية حتى لو أدى إلى ثراء القلة وفقر وبؤس الكثرة، وإنها والديمقراطية ليستا على وفاق تام، فهى لا ترضى من حكم الأغلبية أن يمس حرية الفرد ولا أن يهتم بالجماعة على حساب الفرد.

ونقتبس هنا رأى أكاديمى عن حال الليبراليين فى مصر والعالم العربى، من خاتمة الدراسة التى قدمتها الأستاذة الدكتورة أميمة عبود لمؤتمر «مستقبل الليبرالية فى العالم العربى» الذى عقده مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة فى ١٦، ١٧ مايو ٢٠١١، وجاء فيها:

فى ضوء ما سبق وفى إطار تقويم الورقة لمستقبل الخطاب الليبرالى فى العالم العربى، نجد أن الخطاب الليبرالى العربى قد ظل يكرر ويعيد المفاهيم والأفكار الليبرالية التقليدية التي أصبحت فى مجتمعاتها محل مراجعة وإعادة نظر من ناحية، ويروج للأفكار المرتبطة بأجندة المصالح السياسية الغربية، والأمريكية على وجه الخصوص، من ناحية أخرى[٣٩].

---

(٣٩) على سبيل المثال نشرت جريدة الشروق فى ٨/ ٧/ ٢٠١١ فى الصفحة الثالثة عن =

= دراسة لمعهد واشنطون لدراسات الشرق الأدنى تنصح بضرورة مساعدة المنظمات التى تدرب الليبراليين حتى يستطيعوا منافسة الإخوان فى الانتخابات، وإبعاد هذه الأحزاب عن التحالف مع الإسلاميين.
بينما نشرت جريدة المصرى اليوم بتاريخ ١٩/ ٦/ ٢٠١١ قول بلير: أدعو مصر إلى تأجيل الانتخابات، والإخوان هم المستفيدون من الاستعجال. صفحة ٣.
ما سبق مثالان من أمثلة عديدة تبين وتؤكد هذا الاتجاه.
ومن العجيب أن بعض القوى السياسية المصرية تشكو للدبلوماسيين والسياسيين الغربيين من قوة الإخوان المسلمين وحسن تنظيمهم، حتى إن أولئك «الضيوف» شكوا من تلك الشكوى! وهكذا جاء عنوان عامود سلامة أحمد سلامة فى جريدة الشروق عدد ٣٠ مايو فى صفحة ٣.
وجاء فى أهرام ١٨ أغسطس ٢٠١١، الصفحة التاسعة:
سفير بريطانيا الجديد للأهرام: ... الأفضل عدم مزج الدين بالسياسة.
بينما نشرت المصرى اليوم بتاريخ ١٨/ ٨، الصفحة الثالثة:
المعونة الأمريكية تكشف: أخطرنا السلطات المصرية أننا سنوزع ١٦٥ مليون دولار على الجماعات المؤيدة للديمقراطية.
وفى عدد ٢٤/ ٨ على الصفحة الخامسة:
الكونجرس يهدد بقطع المساعدات عن مصر إذا ألغيت معاهدة السلام... مستوى مشاركة جماعة الإخوان المسلمين فى الحكومة الجديدة له تأثير على المساعدات الأمريكية لمصر، موضحة أن حجم الدور الذى ستلعبه الجماعة فى الحكومة المصرية المقبلة وسيطرتها على السياسة العامة للبلاد سيحدد مستوى المساعدات الأمريكية.

الشريعة الإسلامية


Twitter: @MahmoodTayeb

مقدمة تاريخية

«تاقت النفوس من أبناء شعب مصر العظيم منذ فترة طويلة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، كما تطلعت إلى اليوم الذى يكون فيه مرد الأمر إلى أحكام الله تبارك وتعالى، التى فُطرت عليها طبيعة هذا الشعب».

لم يقل هذه الكلمات الإخوان المسلمون، ولا السلفيون، ولا الجماعات الإسلامية، ولكن كانت تلك مقدمة الكتاب الذى أصدره مجلس الشعب المصرى فى عام ١٩٨٣ بعنوان: **تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب**.

قبل ذلك فى ٢٢/ ٩/ ١٩٨٢ أعلن وزير الأوقاف إبراهيم الدسوقى أنه «تم الانتهاء من إعداد ٩٥٪ من قوانين الشريعة الإسلامية، وإنه يجرى تطويع النسبة القليلة وفقًا لأحكام الشريعة للبدء فى تطبيق ما تم تقنينه فى أقرب فرصة[٤٠]».

نعود قليلًا لما قبل ذلك، فنجد فى عام ١٩٧٨، بعد خمس سنوات فقط من العبور العظيم للجيش المصرى لسيناء فى ١٩٧٣ رغم أنف ما كان يُسمى القوتين العظميين فى ذلك الوقت، أن الرئيس المنتخب لمجلس الشعب، الدكتور صوفى أبو طالب يعلن ـ وفى خلفيته تحرير سيناء عسكريًا، وفى تطلعاته هو وجموع الشعب المصرى المؤمن إنجاز تحرير واستقلال تشريعى

(٤٠) تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب، صفحة ٤.

وقانونى ـ «آن الأوان لإعمال نص المادة الثانية من الدستور[٤١] التى تقضى بأن مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع[٤٢]، بحيث لا يقتصر الأمر على عدم إصدار تشريعات مخالفة لهذا النص، بل يتعداه إلى مراجعة كل قوانيننا السابقة على تاريخ العمل بالدستور وتعديلها بالاعتماد على الشريعة الإسلامية الغراء[٤٣]».

تطبيق الشريعة يعنى الشريعة ككل وليس فقط الأحكام والحدود، فعلى سبيل المثال تأمر الشريعة بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وتأمر بأداء الأمانات إلى أهلها وتأمر بالصدق والرحمة والتكافل، وباكتساب العلم، وبالعمل وبالتجارة والسعى وراء الرزق وسبل القوة، وأمرت بمكارم الأخلاق، وبينت أن خير الناس أنفعهم للناس، وخيرهم خيرهم لأهله، وأمرت المسلمين بالشورى والوحدة، وأمرت بجهاد النفس، وبالجهاد ضد الظالمين مسلمين أو غير مسلمين، فجاء فى الحديث أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وأمر القرآن بقتال الفئة الباغية، وأمرت بإعداد الجيش القوى بقدر الاستطاعة، ونهت أن يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، وعن الغش والتزوير والكذب، وعن النفاق، والاحتكار، وعن التقاعس عن العمل للدنيا والآخرة، وعن الطمع والشح والأثرة، واتباع الهوى، وعن أن يكون المرء إمعة.

(٤١) نصت كل دساتير مصر على أن الإسلام دين الدولة: دستور ١٩٢٣، دستور ١٩٣٠، دستور ١٩٥٤، دستور ١٩٥٦، دستور ١٩٦٤، وأخيرًا دستور ١٩٧١.

(٤٢) تم تعديل المادة فى عام ١٩٨٠ لتصبح: مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع.

(٤٣) تقنين الشريعة الإسلامية فى مجلس الشعب، صفحة ٣.

ترى الشريعة أن الناس إخوة، فهم جميعًا خلق من مخلوقات الواحد الأحد، كلهم لآدم وآدم من تراب، وكلف الله الناس بالخلافة على الأرض لإقامة الحق والعدل وإعمار الأرض، وفى ذلك أعلى تكريم من خالق الأكوان، وقال ـ سبحانه ـ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فليست العزة باللون ولا الجنس ولا غيره، ومقاصد الشريعة الرئيسية هى حماية: النفس، والدين، والعقل، والمال، والعرض، وفى هذا تكريم للإنسان كما أمر الله بتكريمه.

تمثل الأحكام والحدود جزءًا صغيرًا من الشريعة، وتطبيق الشريعة كلها مشروع طموح يتطلب عملًا دؤوبًا بتخطيط واعٍ شامل، والعقبات أمامه كئودة متعددة، فهناك قوى متربصة وجاهزة بكل الوسائل والأساليب، ومستعدة لكل أنواع المواجهة لإجهاض هذا المشروع، والذى إذا نجح فى مصر، ستصبح مصر به نموذجًا وكعبة يتطلع إليها ربع سكان العالم من العرب والمسلمين، وربما يتطلع إليها قطاع كبير آخر من دول أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية التى اكتوت بظلم القرون القليلة الماضية. باختصار يرى البعض فى المشروع مصدر إزعاج خطير للمشروع الغربى لسيادة العالم، ولهذا قالوا إنه لأول مرة فى تاريخ البشرية، تعمل كل أجهزة مخابرات العالم فى ميدان واحد، ميدان التحرير!.

يرى البعض أن يبدأ المشروع بتقنين الشريعة ومبادئها، والمقصود بذلك أن تكون القوانين فى مصر نابعة من أحكام الشريعة، وبالطبع هذا لا يمنع من الاستفادة من التجارب الناجحة فى أىٍّ من دول العالم، بشرط ألا ينتهك هذا أحكام الشريعة ولا مبادئها.

كانت مصر تستقى قوانينها من نبع الشريعة لمدة تزيد على عشرة قرون، حتى بدأ التدخل والنفوذ الأجنبى يسريان فى دم الشعب المصرى كالسم، فبدأت حكومات مصر منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر ترضخ لذلك النفوذ، وأجبرت على إعطاء الامتيازات الأجنبية، ثم أجبرت على إنشاء المحاكم المختلطة، ثم المحاكم الأهلية، وجاء الغزو والاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ بقواته العسكرية وخططه الاقتصادية والمالية، والتى احتاجت لغزو ثقافى، ومن ثم تشريعى وقانونى ليستتب أمر الاحتلال، واستنزاف خيرات مصر وتطويعها لذلك.

ولكن تنبهت الزعامات الوطنية لمخاطر تلك الهيمنة والغزوة الثقافية خاصة فى التشريع والتقنين، والتى رأتها لا تقل خطرًا عن الغزوة العسكرية، إن لم تزد، فثمارها هى الرضا[٤٤]، أو على الأقل القنوع والخنوع لذلك الاحتلال، فلا يحاربه أو يقاومه أحد.

برزت أسماء لامعة فى ذلك الكفاح للاستقلال الثقافى فى التشريع والتقنين، منها رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) الذى طالب بأن تكون الشريعة مرجع التحديث، وحذر كثيرًا من خطر التحول لأخلاق أوروبا وأحكامها، وطالب بأن تكون السيادة العليا فى مجال التشريع والقانون للشريعة الإسلامية، وواصل محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) دعوة الطهطاوى.

وظهر قدرى باشا وزير الحقانية الذى وضع مؤلفاته الثلاثة: مرشد الحيران، قانون العدل والإنصاف، الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية، فى أعوام ١٨٩٠ ـ ١٨٩٣، واعتبره السنهورى زعيم مدرسة تقنين الشريعة ورائدها الأول فى مصر.

---

(٤٤) اعتبر بعض المسئولين فى عهد مبارك، ومن بينهم وزارة الثقافة، أن غزو نابليون فتح، يستحق أن يحتفل به المصريون.

كذلك برز السنهورى الذى استمر فى المطالبة بتقنين الشريعة، وعمل على تكثيف الجهود لإعادة مرجعية الشريعة الإسلامية، فأثمرت جهوده ومن معه عن القانون المدنى فى عام ١٩٤٨، بعد أن نجحت مصر فى إنهاء عهد الامتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية، لتعود لمصر ـ التى كانت تحت الاحتلال البريطانى فى ذلك الوقت، وتحت الملكية الفاسدة ـ حصة كبيرة من استقلاليتها التشريعية، وبدأت العمل به فى عام ١٩٤٩.

وبعد ثورة ١٩٥٢، أوصى المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية فى عام ١٩٦٥ بالعمل على تنقية التشريعات من كل ما يخالف حكم الإسلام، وفى عام ١٩٧٦ أوصى المؤتمر الرابع للمجمع بتشكيل لجنة لعمل الدراسات اللازمة لمشروع الأخذ بأحكام الشريعة، وكما علمنا سابقًا، توج كل ذلك قرار مجلس الشعب فى عام ١٩٧٨ بالبدء فى مشروع طموح لتقنين الشريعة، استجابة للمادة الثانية من الدستور التى تنص على أن مبادئ الشريعة الإسلامية هى مصدر رئيسى للتشريع، والتى تم تعديلها فى عام ١٩٨٠ لتصبح: المصدر الرئيسى للتشريع.

وجدير بالذكر أن المركز القومى للبحوث قام باستطلاع رأى فى عام ١٩٨٥ حول تطبيق أحكام الشريعة على جرائم الحدود، وجاءت نتائجه كالتالى:

* بلغت نسبة الموافقة ٩٨٪ بين المسلمين، و٦٣٪ بين المسيحيين.

* وافق على التطبيق الفورى ٣١٪ من المسلمين، ٣٢٪ من المسيحيين، بينما بلغت نسبة الموافقين على التطبيق التدريجى ٦٩٪ عند المسلمين، ٦٨٪ عند المسلمين[٤٥].

---

(٤٥) تقنين الشريعة بين المجتمع والدولة، د. إبراهيم البيومى غانم، مكتبة الشروق الدولية، سبتمبر ٢٠١١.

يبرز بعد ذلك السرد السريع التساؤل: كيف انتبهت القوى الوطنية فى مصر المحتلة، وتحت حكم الملكية الفاسدة، سواء كانت فؤاد أو فاروق، لأهمية الاستقلال التشريعى والقانونى لمصر، وكافحت من أجله حتى أصدر السنهورى ومن معه القانون المدنى فى ١٩٤٨، ثم استمرت القوى الوطنية فى المطالبة بتقنين الشريعة بعد ثورة ١٩٥٢، وحتى بدأت جهود مجلس الشعب فى عام ١٩٧٨ فى مشروع عملاق لتقنين الشريعة، واستطاعت اللجان المتعددة إعداد ما يقرب من ٩٥٪ من المطلوب فى سنوات قليلة، ثم ينقلب الحال بدءًا من منتصف الثمانينيات، فتختفى دراسات اللجان القانونية بأساتذتها وخبرائها فى أدراج مجلس الشعب، ثم يُحارب هذا المد الوطنى، وتتبارى أجهزة الإعلام الحكومية وبعض الخاصة فى تخويف الشعب من الشريعة الإسلامية، حتى أصبح من يُطالب بها وكأنه يرتكب جريمة؟.

هناك بحث للدكتور محمد كمال إمام عن: الخلفية الفكرية والتشريعية والاجتماعية لاستبعاد تطبيق الشريعة الإسلامية، نشرته مجلة المسلم المعاصر فى عددها الثامن والخمسين الصادر فى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م[٤٦].

---

(٤٦) نقتطف من هذا البحث بعض النقاط المهمة:

* تشير وثائق الفكر المصرى الحديث إلى دور الاستعمار فى إثارة هذه المعركة، وقد استخدم فى ذلك غير المسلمين ـ خاصة الأقباط ـ الذين عقدوا المؤتمر القبطى الأول فى شهر مارس ١٩١١ وجوهر مطالبهم إقامة دولة علمانية فى مصر.

* التشريع الإسلامى إذن كان أهم أدوات المقاومة فى معركة الاستعمار والتغريب، وهذا ما لاحظه المفكر الاجتماعى الفرنسى «جوستاف لوبون» عندما قال «أما الدول التى تأسست على أركان دين آمن به العموم، فقد كانت قوتها أعظم وسلطاتها أوسع، فإذا بقى القانون الديني حيًّا ـ يقصد الشريعة ـ يظل قادرًا على القيام بمهمة التأليف بين المصالح والعواطف».

=

= * فبقاء الإسلام فى المجال التشريعى، هو الوجود الإسلامى الحقيقى، وهو ما عبر عنه «جب» بقوله «ولعلنى غير مخطئ فى اعتقادى، وإن كان اعتقادًا صادرًا عن التصور والحدس، أن احترام الشريعة لا يزال لب التفكير الإسلامي، وأن الإبقاء على الشريعة يرتبط به بقاء الإسلام، أو زواله».

* فدخول التشريع الأجنبى إلى البلدان الإسلامية جاء عن عمد وسبق إصرار، وكان يمثل خطوة الاستعمار الأولى فى السيطرة على المسلمين، ووسيلته لإقامة جسور التبعية على المسلمين، فمنذ عام ١٧٩١م بدأ الحكم الإنجليزى فى الهند بالغاء التشريع الإسلامى، وحدث ذلك فى مصر منذ علت اليد الاستعمارية فيها مع أواخر عصر إسماعيل وفى عصر الخديوى توفيق، ولم يمر عام على دخول الاحتلال الإنجليزى إلا وكانت التقنينات المصرية منقولة عن مجموعة نابليون نقلا يكاد يكون حرفيًا، وحدث مثل ذلك فى الجزائر وتونس والمغرب وبقية أجزاء العالم الإسلامى. وعندما اكتملت دائرة تنحية التشريع الإسلامى، أصبح العالم الإسلامى فريسة سهلة للاستعمار.

* وكما قال القومندان الفرنسى «مارتى» أحد أعمدة الاحتلال الفرنسى فى الجزائر: «كل تدخل من قبل الفقيه، وكل ظاهرة إسلامية يجب منعها بصرامة تامة».

* محمد على كلف «الشيخ محمد الجزائرلى» المفتى أن يضع له قانونًا مدنيًا على مثال وترتيب قانون نابليون يكون فى الوقت نفسه مأخوذًا من الشريعة الإسلامية، وقد بذل الشيخ الجزائرلى جهدًا كبيرًا لإنجاز المشروع إلا أن الظروف الدولية أجهضت محاولته. وقد روى مثل ذلك عن الخديوى إسماعيل ورفاعة الطهطاوى، وفى عهد الخديوى توفيق عندما بدأ التفكير جديًا فى تقنينات حديثة شاملة اتجهت الأنظار إلى المصدر الطبيعى لها وهو الشريعة الإسلامية، فقد جاء فى مذكرة حسين باشا ناظر الحقانية لمجلس النظار بتاريخ ٢٦ محرم سنة ١٣٠٠هـ - ٧ ديسمبر ١٨٨٢م أنه «تراءى للحكومة وضع قانون مطابق للشريعة الغراء، وأحيل عمله على سعادة قدرى باشا، وتشكل قومسيون آخر لترتيب المجال، وفجأة آثرت الحكومة تشكيل لجنة لوضع التقنيات الأهلية برئاسة حسين فخرى، وهو غير مؤيد لقانون مستمد من الشريعة الإسلامية ومن أعضائها المسيو «فاشير» النائب العام لدى المحاكم المختلطة، و «موندو» الإيطالى، و«لوى» الإنجليزى وكانا قاضيين لدى المحاكم المختلطة، وبطرس غالى وكان وكيل وزارة الحقانية، وقد وضعت هذه اللجنة التقنينات الأهلية المنقولة عن التقنينات المختلطة، ويكاد يكون النقل حرفيًا، ولما كانت التقنينات المختلطة قد تم إعدادها فى ظروف مريبة، وبطريقة غريبة، صارت القوانين الأهلية الجديدة على نحو يخالف كل القواعد العلمية المعمول بها فى إصدار التشريعات».

* وفى محضر مجلس النظار بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ عارض على مبارك ما جاء فى التقرير بخصوص الحجر والتقييد على اختصاص المحاكم الشرعية. وأصر مبارك على رأيه هذا ومعه عمر لطفى كما هو ثابت فى محضر مجلس النظار، وقد اضطرد عدوان المحاكم الأهلية على =

= اختصاص المحاكم الشرعية، ويذكر رشيد رضا أن الحكومة أرادت أن تجعل فى المحكمة العليا عضوين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية، فهاج المسلمون فى مصر وحملوا على الحكومة فى الجرائد واجتمع علماء الأزهر للإنكار على الحكومة، وكان من المتحمسين من يتهم الأستاذ الإمام (محمد عبده) بالرضا بالمشروع وتأييد الحكومة فيه، فسألته عن ذلك فعلمت منه أنه سعى فى مقاومته سرًّا جهد طاقته؛ لأنه يضر ولا يفيد المطلوب، وقال إن الواضع الحقيقى له هو بطرس باشا لا ناظر الحقانية، ومن مقاصد بطرس باشا فيه التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية.

* وقد ذكر أفرام البستانى فى شرحه لقانون العقوبات الأهلى «أن هذا التشريع لقى معارضة شديدة لمخالفته للشريعة وعوائد البلاد، وذلك ثابت فى المضابط ومحاضر مجلس النظار».

* وقد حاولت الحكومة فور إصدارها للتقنينات الأهلية - تفاديًا لوصمها بمخالفة الشريعة - تخريج أحكام هذه القوانين على مذاهب الفقهاء.

* ففى سنة ١٩٠٦ كتب على أبو الفتوح باشا، وقد أصبح وكيلًا لوزارة المعارف «ما أجدر الحكومات الإسلامية باستنباط قوانينها وأحكامها من الشريعة، مع اختيار القول الأكثر مناسبة للزمان والمكان، لتكون هذه القوانين والأحكام أكبر احترامًا فى النفوس، وأشد موافقة لأخلاق وعادات من وضعت له ... فعلينا أن نتمسك بشريعتنا الغراء، فهى مؤسسة على الاعتدال الذى به يكون الإنسان سعيدًا فى بيته ووطنه، ومع جيرانه ومعاشريه مهما اختلفت مذاهبهم وتنوعت أجناسهم»، أما العلامة عبد السلام ذهنى، فقد دأب فى كل مناسبة على نقد القوانين المستوردة، وفى مقال له عام ١٩١٦ عن نهضة القانون قال «إنى من الفريق الذى يعتقد بحق بأنه لا بد وأن يكون للقوانين الأهلية عصبية ترجع بها إلى تاريخ الأمة وتقاليدها وعوائدها وأخلاقها، بحيث تكون القوانين صورة لأخلاق الأمة وعوائدها، وقد جاءت المحاكم الأهلية سنة ١٨٨٣ على غرار المحاكم المختلطة، وكان يتعين إنشاء المحاكم الأهلية على الطريقة المعروفة فى الشريعة الإسلامية، كما كان يجب أن تعمل لها قوانين على غرار ما تقرر فى الشريعة الإسلامية، وما درج عليه الأهلون فيها» ويقول «هذا الخطأ الذى وقع فيه نوبار فى سنة ١٨٧٦ من إنشاء المحاكم المختلطة إلى سنة ١٨٧٥ ومن نقل القوانين الفرنسية من مدنية وتجارية ومرافعات وعقوبات وتحقيق جنايات، لا بد من تصحيحه مهما طال الزمن، وتعاقبت الأحقاب، إن القانون المدنى، فيما يتعلق بالمعاملات بين الأفراد كان هو قانون الشريعة الإسلامية، وكانت أحكامها المدنية هى السائدة بين الأفراد ... أما وقد خرج «نوبار» ومن تولى بعده عن ذلك الطريق السوى، طريق استبقاء أصول الشريعة الإسلامية، وطريق المحافظة عليها لتكون قانون الشعب المصرى، ومن يسكنه من غير المصريين، وأتى وأتوا بعده بقانون منقول عن القانون الفرنسى، غريب عن البلاد فى عاداتها وفى طقوسها، وفى تقاليدها، فإنه آن أوان التفكير فى علاج الأمر علاجًا صحيحًا مما مضى، ويعد العدة لمستقبل كله آمال، علاجًا يبعث إلى الوجود المصرى تلك الأصول الشرعية الإسلامية فيما يتصل بالمعاملات».

شريعة التكليف الإلهي للبشر بأمانة الخلافة

جاء في القرآن ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، و﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص:٢٦]، و ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢]، و﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، [الملك:١، ٢]، و﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، و ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٦-٨].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

يظهر من هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى خلق البشر على الأرض ليقوموا بمهمة عظيمة، الخلافة على الأرض، هذه هي الأمانة التي بينتها الآية٧٢ من سورة الأحزاب.

وحمل تلك الأمانة والحكم بالحق، هو عبادة الله التي جاءت في الآية٥٦ من سورة الذاريات.

ويظهر أيضًا من هذه الآيات أن حملنا تلك الأمانة هو اختبار من الله لعملنا على الأرض، والذي سوف يُجازينا عليه في الآخرة، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره، وذلك بموازين الحق، كما جاء في سورة الأنبياء ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [٤٧].

تكررت فى القرآن عشرات المرات ثنائية ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾، بما يبين ـ بحسابات الآخرة ـ أن الإيمان وحده لا يكفى، والعمل الصالح وحده لا يكفى، بل لا بد من الإيمان والعمل الصالح، لذلك قالوا الإيمان قول يصدقه العمل.

كذلك جاء فى القرآن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وجاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]

الحكم بين الناس بالحق والعدل،وأداء الأمانات، وإحسان العمل، هو ما نزلت الشريعة الإسلامية، والشرائع السماوية بصفة عامة، لبيان أسسه للناس،ولذلك جاء فى سورة المائدة، وهى من أواخر ـ إن لم يكن آخر ـ سور القرآن فى النزول:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ

ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤ – ٥٠].

تقول الآيات إن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[٤٧]، وأولئك هم الظالمون، وأولئك هم الفاسقون، ثم تقرر أنه ليس هناك أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

وتأمر بأن يتبع اليهود والمسيحيون شرعهم وهم يعيشون فى المجتمع أو الدولة الإسلامية، ولذلك قال البابا شنودة أكثر من مرة فى مشكلة الزواج الثانى للمسيحيين: ارجعوا يا مسلمين للقرآن[٤٨].

هناك آيات أخرى كثيرة تأمر المسلمين باتباع شرع الله، وأخرى بينت أحكامه، وفصَّلت السنة النبوية بعض تلك الأحكام.

---

(٤٧) قال مخلوف وابن كثير وغيرهما نقلًا عن ابن عباس: من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا فهو كافر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق.

(٤٨) منذ سنوات قليلة، قامت فى أمريكا حملة على الشريعة الإسلامية، وفى عامنا الحالى أصدرت بعض الولايات قوانين تمنع من ممارسة الشريعة الإسلامية، ووصفت ولاية تنيسى الإسلام بأنه مذهب قانونى - سياسى - عسكرى - «Legal - Political Military Doctrine» فهو بهذا الوصف ليس دينًا!

قضية تقنين الشريعة اليوم

يتخوف قليل من المسلمين من بناء المجتمع والدولة والحضارة على أساس مبادئ الشرع وأحكامه، رغم أن علماء السياسة والتاريخ والاجتماع والقانون ـ وغيرهم ـ فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية يرددون دائمًا أبدًا أن مجتمعاتهم وحضارتهم قائمة على أسس يهودية مسيحية.

ورغم شهادة العديد من القانونيين العالميين للشريعة الإسلامية بالتكامل وجدارة الاتباع[٤٩]، ورغم أن المناداة باستعادة الاستقلال التشريعى لمصر بدأت منذ أكثر من قرن، وقال فقهاء القانون من أمثال السنهورى إن استقلال مصر لن يكتمل إلا باستقلالها التشريعى، رغم كل ذلك، رأينا د. علاء الأسوانى، وهو يحاصر مع يسرى فودة ـ أو حتى يتهمان ـ د. محمد مرسى بأن الإخوان يريدون أن تكون هناك لجنة أو جهة يرجع إليها مجلس الشعب لتوضح له إن كان مشروع قانونٍ ما ينتهك الشريعة أم لا، وكان ذلك على شاشة O T V.

وتناسى البعض أن رئيس مجلس الشعب الأسبق، دكتور صوفى أبو طالب، شكل سبعة لجان لتنقية القانون مما يخالف الشريعة، وعملت تلك اللجان لبضع سنوات لإنجاز مهمتها، وكان أعضاؤها من مجلس الشعب ورجال القانون، ورجال القضاء، واستعانت بالأزهر ودار الإفتاء ووزارة الأوقاف فى عملها.

---

(٤٩) قال الفرنسى إدوارد لامبير مدير مدرسة الحقوق السلطانية فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر: لديكم قانون لا يوجد له نظير فى العالم، ومهمتكم الأساسية إظهار هذا القانون. وكان ذلك من أسباب طرد الإنجليز له من مصر ـ د. محمد كمال إمام.

وقرأنا فى جريدة الأهرام فى ١٩/ ٦/ ٢٠١١ على صفحة ٥ العنوان الآتى:

«اتهامات حادة للإخوان فى المؤتمر الأول لجبهة أبناء مصر» وكتب حازم أبو دومة تحت هذا العنوان:

شن الإعلامى وائل الإبراشى هجومًا حادًّا على الإخوان المسلمين، وقال إنهم يمهدون للقفز على السلطة من خلال مخطط طويل المدى لتغيير المجتمع وتحويله إلى دولة إسلامية تدريجيًّا.

ثم كرر الدكتور ضياء رشوان ـ على قناة O T V أيضًا ـ اتهام أحد مؤسسى حزب المصريين الأحرار للإخوان المسلمين بأنهم يريدون انتهاك قاعدة: لا دين فى السياسة، وطلب من الدكتور عصام العريان تأكيدًا بأنهم لن ينتهكوا تلك القاعدة.

وقبل ذلك، قال رشوان بوجوب محاسبة الإخوان على أى تصريحات لهم بهذا الخصوص.

يقول مؤيدو الشريعة:

من أين جاء تقديس هذه القاعدة؟ هل لدى المطالبين بها نص سماوى خصهم الله به؟ أم هناك تجربة علمية أكدت صحة هذه القاعدة فلا يجوز لأحد انتهاكها؟ وهل لا يدخل الدين فى سياسة إنجلترا ـ صاحبة وعد بلفور ـ، وإسرائيل ـ الدولة اليهودية ذات الأحزاب الدينية ومبدأ الأرض الموعودة ـ، وأمريكا الشعب المختار الجديد ـ الذى يؤمن بوجوب قيام دولة إسرائيل حتى تنشب معركة هرمجدون ـ تطلعًا للمجىء الثانى للمسيح، وخلاص المسيحيين؟ أم أنها إحدى كليشيهات البروباجندا التى يقصفنا بها الغرب ونرددها وراءه وندخل بها فى جدل يفرقنا ويصرفنا عن صنع حاضرنا ومستقبلنا؟!.

قبل ذلك، اعترض بعض الإعلاميين وبعض الناشطين السياسيين على المستشار طارق البشرى ووصفوه بأنه: إسلامى.

وانتشرت فى الإعلام بعض المصطلحات التى تزدرى من يُطالب ببناء المجتمع والدولة الإسلامية ـ رغم أن المادة الثانية من الدستور تنص على ذلك، ورغم أن دساتير مصر السابقة، بداية من دستور ١٩٢٣ بها نصوص مشابهة:

دستور ١٩٢٣ : مادة ١٤٩ : الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٣٠ : مادة ١٣٨ : الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٥٤ : مادة ١٩٥ : الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٥٦ : مادة ٣: الإسلام دين الدولة.

دستور ١٩٧١ : مادة ٢ : الإسلام دين الدولة.

وتم تعديل المادة الثانية فى عام ١٩٨٠ إلى: الإسلام دين الدولة، ومبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع.

دساتير تنص على المسيحية

هناك عدة دساتير تحدد ديانة الدولة بأنها مسيحية، وتحدد أى نوع من المسيحية كاثوليكية أو بروتستانتية، وإذا كانت بروتستانتية فأى طائفة منها: لوثرية، كالڤينية أو غير ذلك، فعلى سبيل المثال الدنمارك والنرويج وأيسلندا: أنجيلية لوثرية ـ إنجلترا: الملك هو رأس كنيسة إنجلترا (ومنعت وثيقة الحقوق البريطانية الصادرة فى ١٦٨٩ أن يتولى المُلك أمير

باباوى، أى كاثوليكى، وسمحت للپروتستانت فقط من أفراد الشعب بحيازة الأسلحة) - الأرچنتين وكوستاريكا: الكاثوليكية الرومانية.

ونقطتف من كتاب كليفورد لونجلى: «الشعب المختار: الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا» وصفه لتتويج الملكة إليزابث الثانية - ملكة إنجلترا الحالية - فى كنيسة ويستمنستر: ... وبينما كان كبير أساقفة كانتربورى، الدكتور چيوفرى فيشر يتولى القداس، سألها بشكل رسمى: «هل ستحافظين بأقصى قوتك على قوانين الرب وعلى المغزى الحقيقى للإنجيل؟ وهل ستحافظين بكل قوتك على الديانة الإصلاحية البروتستانتية التى أرساها القانون فى المملكة المتحدة؟ هل ستحافظين بصورة ثابتة على استقرار كنيسة إنجلترا، والمذهب والعبادة والنظام، والحكومة بالتالى، كما أرساها القانون فى إنجلترا؟ وهل ستبقى كل الحقوق والامتيازات لرجال الإكليروس والأساقفة فى إنجلترا كما يقضى القانون؟ وأجابت ويدها على الكتاب المقدس: «أعد بأن أفعل هذا كله» - صفحة ٤٢، ٤٣ من الجزء الأول.

نشرت بعض قوى الغرب المحبة للإسلام مصطلح «Islamist» على الإسلاميين السياسيين، وبالطبع لم تسك تلك القوى مصطلح «Christianist» ولا مصطلح «Judaist» على المسيحيين أو اليهود السياسيين، رغم أن الدين والكتاب المقدس من الأسباب الرئيسية لدعم الولايات المتحدة وأوروبا لإسرائيل(٥٠)، ولما أعلنت إسرائيل رسميًا أنها

(٥٠) نكتفى هنا بمقتطفات من خطاب چورچ بوش للكنيست فى ١٥ مايو ٢٠٠٨:

* استقلال إسرائيل هو الوفاء بوعد قديم لإبراهيم وموسى وداود - أرض الشعب المختار - أرض إسرائيل. =

دولة يهودية، لم نسمع أحدًا فى الغرب ـ ولا حتى فى مصر ـ يردد علينا مثل ذلك المصطلح بالنسخة اليهودية منه، بل عندما أكد نتنياهو على يهودية دولة إسرائيل فى الكونجرس، هب رجال الكونجرس وقوفًا فى عاصفة تصفيق مدوية للزعيم اليهودى، ولكنه ليس «Judaist»!.

وهنا فى مصر، سك الدكتور رفعت السعيد مصطلح «المتأسلمون» على كل من يجرؤ على الجهر باتجاهاته الإسلامية وبرغبته فى بناء الدولة والحضارة الإسلامية(٥١).

= * تحالف حكوماتينا [أمريكا وإسرائيل] لا يمكن فكه، ومصدر صداقتنا أعمق من أى معاهدات، فهى متجذرة فى الروحانيات المشتركة لشعبينا، إنها روابط الكتاب المقدس.
عندما هبط ويليام برادفورد من سفينة ماى فلاور فى ١٦٢٠، ردد كلمات إرميا: تعالوا لنعلن فى صهيون كلمة الله. رأى مؤسسو أمريكا أنها أرض موعودة جديدة، وأطلقوا على بلداتهم أسماء مثل بيت لحم، وأرض كنعان الجديدة. وفى الوقت المناسب أصبح الكثير من الأمريكيين مدافعين بحماس عن دولة يهودية جديدة.
يمكن لمن يريد الاستزادة قراءة الكتب الآتية: «المسيح اليهودى وتاريخ نهاية العالم» رضا هلال، «الصهيونية غير اليهودية» ريجينا رزق، «تاريخ نهاية العالم: كيف غير أكثر أسفار الكتاب المقدس إثارة للجدل حضارة الغرب» ـ والكتب كلها من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

(٥١) فى كتابه «الليبرالية فى مصر» رأى أنَّ من يهاجم ويرفض الإسلام السياسى يكون ليبراليًّا، حتى لو كان ذلك الليبرالى يؤيد احتلال بريطانيا مصر. انظر: شبلى شميل الليبرالى يصف كرومر بأنه: مصلح مصر، ويدعو لاستمرار الاحتلال الإنجليزى لمصر ـ صفحة٦٩، وانظر: ولى الدين يكن الليبرالى الذى يقول عن كرومر إنه حبيب الأحرار ومصلح مصر ورجلها العظيم، ويقول عن عرابى إنه أحد العاصين، ويدعو لبقاء الإنجليز فى مصر ـ صفحة١٥٢، ويرى أن سعد زغلول نصف ليبرالى، ربما لأنه انتقد كتاب «فى الشعر الجاهلى» لطه حسين، وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق ـ صفحة٢٣٨، وبالطبع أشاد الدكتور المؤلف بسلامة موسى الذى جعل من التغريب مادة أساسية فى الليبرالية ـ صفحة ١٧٢.
غلاف الكتاب رسم لفتاتين على وجهيهما أحمر شفاه بصورة مبالغ فيها، وكذلك على أعلى صدر إحداهن العارى، وكأن هذه هى الليبرالية المصرية فى نظر الدكتور المؤلف.

بالطبع لسنا فى حاجة لبيان أن تلك القوى فى الغرب لا تريد الإسلام الذى يدخل الحياة العامة، إسلام الحقوق والعدالة والمساواة والعمل، والذى ينقص فيه إيمان المرء إذا بات شبعان وجاره جائع، وإذا لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، إسلام التوحيد الخالص الذى لا يقول بقدسية السوق ولا بأن أخلاقه وقوانينه هى مصدر التشريع، ولا بقدسية كليشيهات البروباجندا مثل لا دين فى السياسة، ولا بحق النيوليبرالية فى التدخل الإنسانى والاقتصادى فى شئون الشعوب، كما فعلت الولايات المتحدة وبريطانيا وأتباعهما فى العراق[٥٢]، ولا تريد تلك القوى إسلام أمة الإسلام التى تتعاطف وتتكافل وتتآزر وتتحد ـ مثل الاتحاد الأوروبى ومثل الناتو ـ ولكن لتعمل لصالحها ولصالح البشرية.

اعتراضات ومخاوف من تطبيق الشريعة

لكن على أى أساس يتخوف البعض هنا فى مصر، ويرفض البعض الآخر تطبيق مبادئ الشرع ويرفض من ينادى بتطبيقها، أو كما يقولون عنهم: المتأسلمون، أو الـ «Islamists»، أو الإسلام السياسى؟. سأحاول هنا بإيجاز توضيح أهم وأكثر الاعتراضات شيوعًا وأجدرها بالبحث والمناقشة:

---

(٥٢) طبق بريمر الحاكم العسكرى الأمريكى للعراق النيوليبرالية فى العراق بتخصيص كل المشاريع العراقية العامة، وفتح الأبواب على مصراعيها للشركات والبنوك الأجنبية مع حريتها الكاملة فى تحويل كل أرباحها خارج العراق، وإزالة كل ما يعيق انسياب البضائع والخدمات والأموال وخاصة البترول، فحاز بهذا الحسنيين: التدخل الإنسانى لفرض النيوليبرالية، ثم فرضها الفعلى على الشعب العراقى، المنكوب بالمصيبتين.

١- فصل الدين عن السياسة

لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين

لم تخل أى حكومة إسرائيلية منذ قيامها فى ١٩٤٨ من مشاركة الأحزاب الدينية، ولم نسمع أحدًا فى إسرائيل، أو أمريكا أو أوروبا يسك مصطلح«Jndaist» ولا يطالب بفصل الدين عن السياسة!

بل إن وزير الداخلية الحالى فى إسرائيل هو الحاخام إيلى يشاى رئيس حزب شاس، وهو ليس حزبًا دينيًا فقط، بل هو حزب دينى متطرف، ولو كان هذا الحزب إسلاميًا لأطلق عليه الغرب أنه حزب أصولى إرهابى.

وتعددت الأحزاب الدينية فى أوروبا، على سبيل المثال فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وغيرها. وكثير من هذه الأحزاب كاثوليكية، رغم العقبة بين الديمقراطية والكاثوليكية.

فالكاثوليكى مُلزَم بطاعة البابا، الذى هو معصوم، والذى هو يحلل ويحرم، ويُدْخل المسيحى الجنة أو يحرمه منها، والذى هو وكيل أو ممثل ـ أو حتى فى بعض الأحيان عندما تتضخم شخصيته وتسمح الظروف، هو تجسيد للمسيح على الأرض ـ وهذه العقبة هى التى جعلت لوك يمنع التسامح مع الكاثوليك فى إنجلترا ـ لأن لهم رئيس خارج إنجلترا ـ وهى التى جعلت الأمريكيين يثورون عندما فكر أحد

الكاثوليك فى ترشيح نفسه للرئاسة فى مطلع القرن العشرين[٥٣]، ولذلك لم يتول رئاسة أمريكا إلا كاثوليكى واحد - چون كنيدى، والذى تبرأ من طاعته السياسية للبابا قبل الترشح، والذى اغتيل - ضمن ٤٤ رئيسًا پروتستانتيًّا.

وتذكر «موسوعة كمبريدچ للتاريخ: الفكر السياسى فى القرن العشرين» عن الأحزاب الدينية فى أوروپا:

> كان أول تدخل مباشر للكاثوليك فى السياسة له أثر مهم كمؤشر للديمقراطية المسيحية ... وكان الشخصية المحورية أسقفماينز الكاثوليكى «ويليام إيمانويل ڤون كتلر»... لم يقف كتلر عند الجدل بأن المجتمع بما فيه الاقتصاد ينبغى أن يقوم على مبادئ الأخلاقيات الدينية والإحسان والتراحم، بل تطرق إلى الحديث عن المشكلات السياسية والمؤسسية، وحث الكاثوليك على تقبل المجتمع الحديث ومؤسساته الحكومية، كما كان يرى أن الدولة - بينما تحترم الحكم الذاتى للأفراد والمنظمات - لا بد أن تكون هى الضامن للسلام الاجتماعى القائم على الإيمان والوحدة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة.

كما شارك كتلر فى صناعة حزب الوسط Zentrum.

---

(٥٣) اقرأ فى «كيف نفهم الأصولية الپروتستانتية والإيڤانجليكية»: أشعلت حملة سميث جدلًا عنيفًا ضد الكاثوليكية فى قلب الپروتستانت المحافظين، وقالوا: غدًا قد يكون لدينا سميث، وبعد غد سيكون لدينا البابا - صفحة ٧٩، والكتاب من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

جمع حزب الوسط بين الدفاع الصارم عن المبادئ الكاثوليكية والاستقلال السياسى عن روما.

ربما يكون هو [حزب الوسط] الداعم الأساسى للجمهورية؛ حيث شارك فى جميع تحالفات الحكومة، وحصل على رئاستها تسع مرات من أصل عشرين، فى قيامه بهذا الدور كان لا بد أن يدافع بالطبع عن مصالح الكنيسة الكاثوليكية.

تراوحت [قوته الانتخابية] ما بين حد أقصى ٧, ١٩٪ فى ١٩١٩، الى حد أدنى ٢, ١١ ٪ فى ١٩٣٣.

ثم تنتقل الموسوعة إلى فرنسا:

فى فرنسا، دعمت أزمة الثقافة الوضعية، والإحياء الروحانى، إلى جانب دعوة البابا ليو الثالث عشر لرفع شأن مؤسسات الجمهورية الثالثة، دعمت جميعها نمو الديمقراطية المسيحية.

كانت «سيلون» هى الجريدة الناطقة باسم الحركة التى أسسها مارك سانچنييه، وكانت أيديولوچيتها تقوم على فكرة الديمقراطية التى يشارك بها الجميع، والمستوحاة من المسيحية.. وفى عام ١٩٢٤، استطاع [سانچنييه] أن يكوِّن الحزب الديمقراطى الشعبى، وكان لعمله أعظم الأثر فى الكاثوليكية السياسية الفرنسية التى أسهمت فى كل من حركة المقاومة وإقامة الحزب

المنادى بالديمقراطية المسيحية فى فترة ما بعد الحرب، وهو الحركة الجمهورية الشعبية.

أما فى إيطاليا، فذكرت الموسوعة القس لويجى ستروز الذى أسس الحزب الشعبى الإيطالى فى عام ١٩١٩:

بعد إنشائه بفترة وجيزة، حقق الحزب نجاحًا لا بأس به فى أول انتخابات تُقام فى إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى، وبحصوله على ٦, ٢٠٪ من الأصوات الانتخابية، أصبح هو الحزب الثانى فى إيطاليا بعد الحزب الاشتراكى.

وتحت عنوان:

[أوروبا]:«بعد ١٩٤٥ : الديمقراطية المسيحية فى السلطة»

جاء فى الموسوعة ما يلى:

أثناء الحرب وبعدها، كان على الأحزاب الديمقراطية المسيحية أن تتكيف، ليس مع الكاثوليكية السلطوية والمحافظة التى عرفت بولائها للنظم الفاشية فحسب، وإنما مع المجموعات الكاثوليكية التقدمية الموالية للأفكار الماركسية كذلك؛ ولكن رغبتهم فى الحرب ضد الشيوعيين قربت بينهم وبين المحافظين، وفى تحالفاتهم مع هؤلاء كانوا فى بعض الأحيان يمثلون الثقل الأكبر. حدث ذلك للحزبين الديمقراطيين المسيحيين الكبيرين:

الديمقراطى المسيحي الإيطالى DC والديمقراطى المسيحى الألمانى CDU /CSU وكلاهما تقلد السلطة بعد الحرب، وأصبح الحزب الرئيسى فى النظام السياسى الذى قام فى النصف الثانى من القرن العشرين.

ووفقًا لصناديق الاقتراع، كان الحزب الديمقراطى المسيحى الإيطالى DC بغير منازع، هو أكبر الأحزاب الإيطالية منذ ١٩٤٦ حتى ١٩٩٢، حيث تراوحت نسبة التصويت له بين ٣٥٪ و ٣٨٪ لعقود طويلة، وبلغت أعلى نقطة سجلها ٤٨٪ (وهو عام الصدام الكبير مع الجبهة الشعبية)، وأكثر النقاط انخفاضًا ٢٩,٧٪ وهى التى سجلها فى ١٩٩٢، وهو العام الذى وقعت فيه الأزمة التى أدت إلى اختفائه بعد فترة انحدار بطىء فى الثمانينيات. كذلك كان الحزب الديمقراطى المسيحى الألمانى CDU /CSU هو أكبر الأحزاب فى ألمانيا باستثناء الأعوام ١٩٧٢، ١٩٨٨، ٢٠٠٠؛ وكانت النسب التى يحصل عليها فى الاقتراع تتراوح ما بين ٤٢٪ و ٤٨٪، ولكنه حصل على أغلبية ساحقة فى ١٩٥٧ عندما فاز بنسبة ٥٠,٢٪. وقد بقى الحزب الديمقراطى المسيحى الإيطالى DC فى الحكم من ١٩٤٥ إلى ١٩٩٣ دون انقطاع؛ فى حين بقى الحزب الديمقراطى المسيحى الألمانى CDU /CSU فى الحكم من ١٩٤٩ إلى ١٩٩٨

بفترة توقف استمرت ثلاثة عشر عامًا (١٩٦٩ ـ ١٩٨٢) عندما كان هناك ائتلاف ديمقراطى اجتماعى ـ ليبرالى فى السلطة؛ ودائمًا ما كان الحزبان يكونان حكومات ائتلافية عندما كانت لهما الأغلبية فى البرلمان.

أصبح الحزبان حزبين جماهيريين. وبدْءًا من الستينيات فصاعدًا تساوت أعداد أعضاء الحزب الديمقراطى المسيحى الإيطالى مع أعداد أعضاء الحزب الشيوعى الإيطالى PCI بل وفاقتها، حتى إن عددهم وصل إلى ١,٨٠٠,٠٠٠ عضو. ورغم اختلاف الحزبين الألمانيين فى منهجى نشاطهما فإن عدد أعضاء الحزب الديمقراطى المسيحى الألمانى CDU بلغ ٧٠٠,٠٠٠ عضو فى الثمانينيات كما بلغ عدد أعضاء الحزب الاجتماعى المسيحى الألمانى CSU ٢٠٠,٠٠٠ عضو. كان كلا الحزبين الديمقراطيين المسيحيين الإيطالى والألمانى هما السبب الرئيسى فى إعادة بناء بلديهما، فقد شجعا على إنعاش الاقتصاد وتقوية المؤسسات الديمقراطية وإعادة دولتيهما إلى نسيج المجتمع الدولى بعد المأساة القومية التى خلفتها النازية والفاشية.

ولا شك أن الفكر الديمقراطى المسيحى أسهم فى خلق نموذج معدل للتنمية بدلًا من القبول الكامل

بالنموذج الرأسمالى، وقد أسهم الحزبان الديمقراطيان المسيحيان فى ألمانيا فى توسيع دولة الرفاهة وتقويتها منذ الخمسينيات، بل إن دولة الرفاهة اتسعت فى إيطاليا لدرجة أن تحولت إلى نظام للصدقة له زبائنه؛ وقد استأنف الحزب الديمقراطى المسيحى ممارسة تدخل الدول فى الاقتصاد موسعًا ذلك فى مجال الصناعة، وهو ما بدأه النظام الفاشى. أما حزبا ألمانيا فقد كانا أكثر احترامًا لاستقلالية المؤسسات الصناعية الضخمة حتى وإن بقى الكثير من الشركات الكبرى تحت سيطرة الشعب. وقد قام الحزبان الديمقراطيان المسيحيان فى ألمانيا وإيطاليا بتحديد مصير دولتيهما فى مجال السياسة العالمية باختيارهما للغرب، والتحالف مع الولايات المتحدة، الذى تأكد من خلال حلف الأطلنطى، (الأمر الذى لقى الكثير من المعارضة من قبل اليسار فى كلتا الدولتين)، والخيار الأوروبى وعقد اتفاقية الفحم والفولاذ التى كانت النواة للاتحاد الأوروبى الحالى. وقد بقى الحزبان على ولائهما لكل خيارات مؤسسيهما.

عادة ما يوضع الفرنسى روبرت شومان Robert Schuman إلى جانب الإيطالى آلسيد دى جاسپرى Alicide De Gasperi والألمانى كونراد أديناور Konrad Adenauer كأحد مؤسسى الاتحاد

الأوروبى European Community. كان شومان عضوًا فى حزب ديمقراطى مسيحى آخر فى فترة ما بعد الحرب: هو حزب الحركة الجمهورية الشعبية MRP؛ وعلى النقيض من الأحزاب الأخرى كان هذا الحزب، الذى هبطت نسب التصويت له هبوطًا حادًّا من ٢٨٪ فى ١٩٤٦ إلى ١٠٪ فى ١٩٥٦ قد راح دوره يتضاءل فى الجمهورية الفرنسية الرابعة؛ حيث اختفى تمامًا باختفائها، أما أثناء الجمهورية الخامسة فإن الديمقراطيين المسيحيين كونوا أحزابًا صغيرة فى إطار تحالف يمين الوسط بقيادة الديجوليين. وكان MRP هو أكثر الأحزاب التى بقيت على ولائها للمبادئ الديمقراطية المسيحية، وربما كان سبب ذلك فى أن وضع نفسه فى يسار الوسط على خارطة الأحزاب، وهو الموقف الذى جعله لا يجتذب دعم جميع الكاثوليك الفرنسيين[٥٤]

لم نسمع أحدًا فى أوروبا أو أمريكا أو مصر، يطلق لقب «Chrystianist» على المسيحى الذى يعمل بالسياسة، أو ما يقابل لقب المتأسلم من ألقاب مثل المتأسيح أو المتمسح.

ولا يفوتنا هنا ذكر الدور الرئيسى الذى قام به بابا الڤاتيكان السابق والكنائس الكاثوليكية فى پولندا وألمانيا الشرقية ورومانيا فى

(٥٤) صفحات ٢٣٣ إلى ٢٤٦ من المجلد الأول، والموسوعة من منشورات المركز القومى للترجمة بتاريخ ٢٠٠٩.

انهيار الاتحاد السوفييتى، ونقتبس من كتاب «سياسى الله ـ God`s Politician» ـ من منشورات faber & faber ـ ما يلى:

الباباليس الزعيم الروحى لتسعمائة مليون كاثوليكى فقط، ولكنه أيضًا رجل دولة على مستوى أهمية الرئيس جورباتشوف والرئيس بوش [الأب].

الفاتيكان أصغر دولة مستقلة، ولكن لها نفوذ سياسى واسع فى المجال الدولى.

وكتب جورباتشوف عن البابا فى جريدة LaStampa الإيطالية التى تصدر فى ميلانو، بتاريخ مارس ١٩٩٢:

كل ما حدث فى أوروبا الشرقية فى السنوات الأخيرة، ما كان ليحدث بدون الدور السياسى للبابا على المسرح العالمى ... وسوف يستمر البابا چون پول فى ممارسة نفوذه السياسى المهم ـ مقدمة الكتاب xii , vii.

وقبل الانتقال إلى الولايات المتحدة فى أقصى الغرب، نصوب أنظارنا إلى أقصى الشرق: ماليزيا وإندونيسيا.

الأولى بها ثلاثة أعراق، والمسلمون حوالى ٦٠٪ من السكان أو أقل قليلًا، والثانية بها عشرات الأعراق، والمسلمون بها بين ٨٥٪ و ٩٠٪. الدولتان بهما أحزاب إسلامية، والدولتان تتمتعان بديمقراطية أعلى من معظم، إن لم يكن كل الدول العربية، وكذلك تتمتعان بمعدلات تنمية أعلى من مصر، ومن كثير من الدول العربية.

ولكن ما هى السياسة؟

جاء فى كتاب «الدين والسياسة فى الولايات المتحدة» لأستاذين فى العلوم السياسية والدراسات الدينية فى الولايات المتحدة[٥٥] ما يلى:

تعريف السياسة

هناك تعريفات عديدة للسياسة... [منها] المهام المنوطة بها الحكومة وتأثير الحكومات على الشعوب، والطرق التى تعمل بها، والسلطة التى يلجأ إليها قادتها للحصول على السلطة والاحتفاظ بها. وهنا تعريف آخر يركز على استخدام السلطة، فعلى سبيل المثال عرَّف روبرت دال السياسة على أنها «علاقات إنسانية تتطلب إلى حد كبير السيطرة أو النفوذ أو القوة أو السلطة».

هناك تعريف آخر يركز على تحديد القيم. فقد عرَّف داڤيد إيستون السياسة على أنها تحديد السلطة لقيم المجتمع[٥٦]. وهذا التعريف وما شابهه من تعريفات

---

(٥٥) «Politics And Religion in The United States» ميشيل كوربت، وچوليا كوربت، من منشورات جارلاند پاپليشينج ١٩٩٩، ترجمته مكتبة الشروق الدولية، وطبعته ثلاث طبعات آخرها ٢٠٠٦.

(٥٦) ولذلك قال تونى بلير: دخلت عالم السياسة لأطبق المبادئ المسيحية التى تربيت عليها .... القيم بدون سياسة لا وزن لها.

ويقول چون بيرتون راعى بلير وكاتب قصة حياته، فى كتابه «We Dont Do God: Blaires Religion Belief And Its Consequences» من منشورات Continum، ٢٠٠٩: استغل بلير كل فرصة طوال مدة رئاسته ليشرح كيف تضافرت معتقداته الدينية مع معتقداته السياسية...=

يُعتبر أكثر التعريفات السياسية شيوعًا وقبولًا من جانب علماء السياسة ـ صفحة ١٣، ١٤.

وقد بدأت مقدمة الكتاب المذكور بالفقرات الآتية:

استخدم الرئيس كلينتون فى خطابه الافتتاحى سنة ١٩٩٧ استعارة من التوارة حينما قال: «استرشادًا بالرؤية القديمة لأرض الميعاد، فلنوجه أبصارنا اليوم إلى أرض ميعاد جديدة». لقد اعتمد الرؤساء الأمريكيون بدءًا من چورچ واشنطن فصاعدًا على الحس الدينى، وليس للتأثير على عقول أبناء الشعب فحسب، بل على أفئدتهم أيضًا لتأييد الأهداف الرئاسية.

فإن الدين والسياسة شكلا نسيجًا متداخلًا عبر تاريخ الولايات المتحدة منذ الفترة الاستعمارية وحتى وقتنا الحاضر. لذا، فإن كتاب «الدين والسياسة فى الولايات المتحدة» يقدم رؤية شاملة للطرق التى ساعدت على تفاعل كل من الدين والسياسة فى الولايات المتحدة وسوف نتناول قصة هذا التفاعل المستمر فى عدة أبواب.

= لم يكن هناك مطلقًا أى فصل بين سياساته ومسيحيته ـ XV، XX.
والكتاب تسجيل دقيق للمزج الكامل بين سياسة بلير ومسيحيته.
أما چورچ بوش، فقد قال ـ لمن كان يدرس معهم الكتاب المقدس ـ قبل ترشحه للرئاسة «لقد استدعيت لكرسى الرئاسة ـ I have been called to the Higher Office»

تعد هذه المقدمة أساس العمل؛ حيث يتم تحديد شروط هذه العلاقة وتقديم وصف عملى لكل من الدين والسياسة، مع إيضاح سبب الارتباط الضرورى بينهما فى الولايات المتحدة. كما أنها تقدم دراسة نمطية مختصرة عن الاحتمالات المنطقية لهذه العلاقة.

ينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أجزاء، ويتضمن كل منها عدة فصول .

يتعرض الجزء الأول (الدين والتاريخ) لطبيعة هذه العلاقة فى الماضى. يتناول من خلال فصوله التجربة الاستعمارية، وأهداف المؤسسين الأوائل فى الحقبة الزمنية من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٩٥٩، ومن عام ١٩٦٠ حتى الوقت الحاضر، ومما هو جدير بالذكر أن القضايا الخاصة قد تتغير بمرور الوقت ، ولكن العلاقة بين الدين والسياسة تظل هى الوتيرة السائدة عبر التاريخ.

يتعرض الجزء الثانى (الدين والتعديل الأول) لتاريخ العلاقة القانونية بين السياسة والدين. ويتناول هذا الجزء من خلال فصوله البند الخاص بالكنيسة الرسمية. والبند الخاص بحرية الممارسة الدينية، والخلاف القائم بينهما.

يستعين الجزء الثالث (الدين والرأى العام) بمعلومات مستقاة من استطلاعات الرأى، لتوضيح مدى انعكاس

العلاقة بين الدين والسياسة على الرؤى السياسية والاجتماعية للأفراد فى الوقت الحالى. يعقب الفصل الذى يتناول الدين والرأى العام فصول أخرى، يتم فيها تحليل الروابط بين الدين والسياسة من وجهة نظر الأمريكيين البيض والسود؛ حيث إن المجموعتين تختلفان اختلافًا كبيرًا فى رؤيتهما لتلك الروابط.

يتكون الجزء الرابع (نتائج المؤثرات الدينية على السياسة) من فصلين، يتم فيهما استعراض دور هذه العلاقة وما انتهت إليه فى الوقت الحاضر؛ حيث إن الجماعات الدينية تحاول التأثير على السياسة العامة، كما يحاول الأفراد تصور الشكل الذى يجب أن تكون عليه هذه العلاقة.

وإلى جانب الموضوع الرئيسى للكتاب، وهو العلاقة بين الدين والسياسة، فهناك عدد من الأسئلة والقضايا التى يتم طرحها فى كثير من الفصول المذكورة آنفًا. بعض هذه الأسئلة والقضايا مذكورة فيما يلى:

* تنظيم الحياة الشخصية.

* شن الحرب وتفهمها أو تبرير أسبابها: لقد أثر الدين منذ الثورة الأمريكية وحتى حرب الخليج على رؤية الناس للحرب. وهذه الرؤية انقسمت إلى رؤية تعارض الحرب وأخرى تؤيدها.

* العلاقة بين الجماعات: اعتاد الدين ـ على سبيل المثال ـ تشجيع كلٍّ من العبودية وإلغائها فى الوقت نفسه، وبالمثل تشجيع الفصل العنصرى والاندماج فى آنٍ واحد.

* غالبًا ما كان الدين فى الولايات المتحدة داعمًا بصفة عامة للحكومة. ولكن كثيرًا ما شكل الأفراد والجماعات تحديًا خطيرًا تجاه إجراءات معينة.

* الدين والعملية الانتخابية: لعب الدين ـ إلى جانب عوامل أخرى ـ دورًا مؤثرًا فى سلوكيات الناخبين عَبْر التاريخ. فعلى سبيل المثال، يتجه اليهود والكاثوليك لانتخاب المرشحين الديمقراطيين أكثر من الناخبين البروتستانت. وقد أثر الدين أيضًا على طريقة عرض المرشحين والمسئولين المنتخبين لقضاياهم على عامة الناخبين ـ صفحة ٨ ـ ١١.

نعود لمصطلح فصل الدين عن السياسة

ربما يكون هذا المصطلح من أكثر المصطلحات تداولًا اليوم فى مصر. فما هو أصله؟ هل هو تنزيل سماوى يجب الانصياع له؟ أم هل هو فكرة بشرية؟ غربية أم شرقية؟ أم فكرة محرفة من أصلها إن كان لها أصل؟ وما هو سياقها وسياق تطورها؟.

الدين فى السياسة الأمريكية
ما لا يتناوله الإعلام المصرى ولا العربى

يجدر بنا قبل أى بحث ومناقشة أن نفيد القارئ هنا بما لا يتناوله الإعلام المصرى ولا العربى:

* أطلقت نيوزويك على عام ١٩٧٦: عام الإيڤانچليكى، بمناسبة ارتفاع مد اليمين المسيحيى فى أمريكا، ووصول كارتر «المولود ثانيًا - Born Again» إلى كرسى الرئاسة.

* قال كارتر فى كتابه «Living Faith» الذى نشرته «Times Books» مرتين فى ١٩٩٦، ١٩٩٨، فى صفحة ١١٧: «Civil disobedience is in order when human laws are contray to God´s commands to us .... we are not required to submit to the domination of authority without assessing whether it is contrary to our faith or our beliefs»

وملخص ترجمة قول كارتر: العصيان المدنى مبرر إذا خالفت قوانين البشر قوانين الله ... ليس علينا الخضوع لسيطرة السلطات بدون تقييم ما إذا كانت مخالفة لإيماننا ومعتقداتنا.

أليس قول كارتر هو نفسه ما حاصر د. الأسوانى وفودة د. مرسى عليه باعتباره تهمة تستدعى إنكارها أو التوبة منها؟ والطريف فى أمر كارتر«الإيڤانچليكى»، أنه برغم مقولته تلك التى شكلت سياسته،

يروى فى كتابه أن اثنين من ممثلى مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين زاراه فى مكتبه فى البيت الأبيض، وعند مغادرتهما مكتبه البيضاوى قال له الرجل وزوجته مودعين: «We are praying Mr President that you will abandon secular humanism as your religion»

نحن نصلى لك، السيد الرئيس، حتى تتخلى عن الإنسانية الزمنية كدين ـ صفحة ٣٥.

وقال كارتر أمام الكنيست الإسرائيلى فى مارس ١٩٧٩:

«جسد من سبق من الرؤساء الأمريكيين الإيمان بأن جعلوا علاقات أمريكا مع إسرائيل أكثر من علاقات خاصة، إنها علاقات فريدة لأنها متأصلة فى ضمير الشعب الأمريكى، وفى أخلاقه وفى دينه وفى معتقداته... إننا نتقاسم معكم تراث التوراة» ـ كتاب «المسيح اليهودى ونهاية العالم» رضا هلال، صفحة ١١٧.

* كان الرئيس رونالد ريجان ـ الذى انتخبه الشعب الأمريكى مرتين، مثل چورچ بوش الابن ـ يرفع الكتاب المقدس فى يده قائلًا: فى هذا الكتاب حل مشاكل أمريكا.

وأقوال وأفعال ريجان التى امتزجت فيها معتقداته الدينية بسياسته سجلتها الكاتبة الراحلة جريس هالسيل، وترجمها محمد السماك فى عدة كتب أصدرتها دار الشروق منها: يد الله ـ النبوءة والسياسة. ويظهر فيها الرئيس الأمريكى مؤمنًا إيمانًا كاملًا بقرب نشوب معركة هرمجدون

التى جاءت فى آخر أسفار الإنجيل، سفر رؤيا يوحنا ـ والتى تمثل حجر الأساس لدعم المسيحيين فى أمريكا وأوروبا لإسرائيل ـ والتى أوَّلها علماء الإنجيل ـ خاصة من اليمين المسيحى ـ بأنه واجب على كل مسيحى دعم إسرائيل حتى تنشب معركة هرمجدون التى يموت فيها ثلث البشر حتى يهبط[٥٧] المسيح بسلام ويحكم العالم بسلام. ونذكر القارئ بأن ريجان فى استطلاعات رأى الشعب الأمريكى يحتل مرتبة متقدمة فى قائمة أفضل رؤساء الولايات المتحدة.

* دور بابا الڤاتيكان السابق چون پول فى انهيار الشيوعية والاتحاد السوڤييتى، والذى تحدثت عنه مختلف وسائل الإعلام، ونخص بالذكر الكتاب الذى نُشر عن دوره السياسى «سياسى الله ـ God´sPoliticain»، داڤيد وايلى، من منشورات faber and faber، ١٩٩٢.

* قول نتنياهو فى الولايات المتحدة فى أواخر القرن الماضى: نحن نسير على خطى آباءنا من اليمين المسيحى. وكان ذلك بعد أن قال له چيرى فالويل[٥٨]: لا تتخلى عن شبر واحد من أرض إسرائيل التوراتية.

والطريف فى أمر نتنياهو أنه ظهر مع لارى كينج فى برنامجه المشهور، وحتى يكتسب عطف الجمهور الأمريكى، قال إنه يتدارس الكتاب المقدس كل يوم سبت مع ابنه، وأن ابنه أصبح عالمًا بالكتاب المقدس وحصد جائزة محلية وأخرى دولية.

---

(٥٧) بالطبع ذلك الثلث هو من العرب والمسلمين ومن يقف معهم ضد إسرائيل.

(٥٨) چيرى فالويل أحد دعاة اليمين المسيحى والذى استمع له الملايين، والذى كانت له جامعة خاصة ووسائل إعلام ودعاية خاصة، وطائرة خاصة، فتأثيره فى أمريكا مثل تأثير الشعراوى والغزالى والقرضاوى وعمر عبد الرحمن مجتمعين، وربما أكثر.

* حتى كليتنون الذى لم يشتهر بالتقوى والاستقامة قال: قال لى كاهن كنيستى: الرب سيغفر لك كل شىء، إلا أن تتخلى عن إسرائيل.

* أما چورچ بوش الابن ـ الذى قال إن الله استدعاه لكرسى الرئاسة، قال فى شرم الشيخ إن الله قال له: يا چورچ... اذهب وأطح بصدام حسين ففعلت... اذهب وحارب الإرهابيين فى أفغانستان ففعلت... وقال للرئيس الفرنسى شيراك: إنا ذاهبون للقضاء على يأجوج ومأجوج! ـ كتاب «لو كررت ذلك على مسمعى فلن أصدقه!» للإعلامى الفرنسى الشهير چون كلود موريس، دار نشر بلون الفرنسية، فى ٢٠٠٩.

يستحق هذا الشعار: فصل الدين عن السياسة، الذى تردده يوميًّا عشرات المرات بعض القوى السياسية، والمنظمات غير الحكومية، ووسائل الإعلام، ويرفعه البعض إلى مرتبة مقدسة ـ مثلما قدَّس البعض حرية الأسواق وجعلها مصدرًا لكل القيم والأخلاق، حتى عد الرجوع عنها بمثابة الارتداد عن دين مقدس ـ أن نفرد له بضع صفحات إضافية نستجلى بها كنهه أو كهنوته.

جاء فى موسوعة بريتانيكا:

الكنيسة والدولة

العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة «العلمانية[٥٩] ـ Secular» فى المجتمع.

(٥٩) مصطلح علمانية هو الآخر من المصطلحات التى أسىء ترجمتها بشكل فادح، والترجمة الصحيحة لها «غير إكلريكى»، أو «غير كنسى»، أو «أرضى» فى مقابل «سماوى»، أو «لا دينى» فى مقابل «دينى»، أو «زمنى» فى مقابل «أبدى» وأصلها باليونانية واللاتينية «لايكوس ـ Laikos ـ Laicus»، وسنختار هذه الترجمة الأخيرة فيما يلى من صفحات الكتيب.

لم تتضح معالم للفصل بين الأنظمة الدينية والسياسية فى معظم الحضارات القديمة. ومع ظهور المسيحية بزغت فكرة الفصل بين النظام الدينى والنظام السياسى بقول المسيح: إعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله[٦٠] - إنجيل مرقس١٢ :١٧.

ومع هذا، استمر الترابط القوى بين الدين والسياسة، حتى بعد انتصار المسيحية، فمارس الإمبراطور قسطنطين السلطة على كل من الكنيسة والدولة[٦١].

دعا الحكام «الزمنيون» أنهم يحكمون بنعمة الله، وبفضل الله «Grace of God»، ثم تصارع كل من الباباوات والأباطرة لحكم العالم كله[٦٢].

(٦٠) طبقًا لما جاء فى الإنجيل، أراد بعض اليهود إيقاع المسيح فى خصومة مع الحاكم الرومانى، فسألوه عن الجزية، فإذا قال لا تدفعوها اعتقلته السلطات الرومانية، وإذا قال ادفعوها، سقط فى أعين اليهود الثوار على الرومان.

(٦١) الإمبراطور قسطنطين هو الذى أعلن المسيحية دينًا رسميًا للإمبراطورية الرومانية، وكان ذلك بعد أن رأى حلمًا - أثناء فترة قتاله ليصبح الإمبراطور - أنه سينتصر على أعدائه فى الحرب إن قاتلهم تحت شعار المسيح. وقسطنطين هو الذى أمر بعقد مجمع نيقيا سنة٣٢٥م ليضع فيه العقيدة المسيحية.

(٦٢) اعتمد الباباوات على نص فى الإنجيل يقول فيه المسيح لبطرس: ...وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون قد رُبط فى السماء، وما تحله على الأرض، يكون قد حُل فى السماء - متى ١٦: ١٩، فأوّلوا النص بأنهم يفتحون الجنة لمن يريدون، ويحرمونها على من يريدون، وأن لهم سلطة التحريم والتحليل، وأنهم معصومون، وزاد بعضهم فقال إنه تجسيد للمسيح على الأرض.

أثناء أزمة تقليد المناصب الكهنوتية[٦٣]، فصلت الكنيسة بين سلطتها وسلطة البابا أو الملك، برغم أنها وضعت الأساس لما يُسمى الملكية البابوية[٦٤].

قلص الإصلاح [البروتستانتية] كثيرًا من السلطة البابوية، وتأرجح البندول لجانب الدولة، مع زعم كثير من الملوك بحقهم الإلهى «Divine Right» فى حكم الكنيسة والدولة[٦٥].

ظهر مفهوم الحكومة «الزمنية» كما صورته الولايات المتحدة وفرنسا، تحت تأثير مفكرى التنوير. واليوم فى أوروبا الغربية، تحمى كل الحكومات حرية العبادة[٦٦] وتضع تمييزًا بين السلطة المدنية والسلطة الدينية.

---

(٦٣) من له الحق فى تعيين المناصب الكهنوتية العليا: البابا، أم الإمبراطور أو الملك؟.

(٦٤) أى يكون البابا هو نفسه الملك أو الإمبراطور، وتلك لها أصل فى الكتاب المقدس: ملكى صادق. ولذلك جاء باباوات تسمَّوا بأسماء القياصرة والفاتحين، وكونوا جيوشًا وعملوا على توسيع حدود دولتهم. اقرأ ما كتبه ول ديورانت فى قصة الحضارة عن البابا إسكندر السادس: ولما سئل أى اسم يريد؟ أجاب: اسم الإسكندر الذى لا يقهر! وعلق ديورانت قائلًا: وكانت هذه بداية وثنية لولاية دينية وثنية ـ جـ٢٠ صفحة ٨٣، وانظر بعد ذلك: البابا المحارب يوليوس الثامن جـ٢٠ صفحة ١٤٤ وما تلاها.

(٦٥) عاشت تلك الفكرة فى أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر، فى فرنسا وفى ألمانيا على سبيل المثال.

(٦٦) ما يجرى فى أوروبا والولايات المتحدة مع المسلمين لا يتفق مع هذا الزعم، وقال الدكتور خالد أبو الفضل ـ أستاذ القانون فى جامعة كاليفورنيا، وقد عمل مستشارًا دينيًّا لجورج بوش سنوات قليلة استقال بعدها ـ إن هناك أكثر من عشر ولايات أمريكية شرعت حديثًا قوانين للتمييز ضد المسلمين، فيما يخص تطبيق الشريعة.
ومن العجيب أن يتظاهر بعض الأمريكيين فى نيويورك ضد إقامة مدرسة للثقافة العربية تحت اسم: جبران خليل جبران!.

ويقوم النظام القانونى فى بعض الدول الإسلامية الحديثة على الشريعة. فى الولايات المتحدة، يشهد مجال التعليم العام مواجهات خلافية على قضايا مثل : الصلاة فى المدارس، التمويل العام، تدريس نظرية الخلق[٦٧] ـ صفحة ٤٠٤.

يمكننا أن نلخص ما قالته بريتانيكا بأنه حتى ظهور المسيحية، لم يكن هناك معالم للفصل بين الأنظمه الدينية والسياسية، ومع ظهور المسيحية بزغت فكرة الفصل على أساس آية فى الإنجيل، ولكن لم يتم الفصل بناءً على آيات أخرى رأى فيها الباباوات وآباء الكنيسة، مثل أوجستين وغيره، أن السلطة الزمنية، أى السياسية، يجب أن تخضع للكنيسة. وطبقًا لبريتانيكا، نشب صراع بين الحكام «الزمنيين» أى الأباطرة والملوك، والباباوات على حكم العالم بسبب اختلاف فى تأويل آيات الكتاب المقدس، حتى ظهر مفهوم الحكومة الزمنية كما صورته الولايات المتحدة وفرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر.

فلنذهب للولايات المتحدة لنرى ماذا حدث هناك!

---

(٦٧) ربما تكون الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة فى العالم التى سجنت مدرسًا (سكوبس) لأنه درَّس نظرية داروين، فحاكمته فى ١٠ - ٢١ يوليه ١٩٢٥، فى دايتون فى ولاية تنيسى، وأدانته. وضغط اليمين المسيحى المستمر على المدارس جعل نسبة معتبرة منها تدرس نظريته فى الخلق بالتوازى مع نظرية داروين، ونسبة أخرى تدرس نظريته فقط ولا تدرس نظرية داروين أو ما يقوله العلم.

وجاء فى كتاب «أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا» تحرير كيمبرلى بلاكر من منشورات New Boston Books، ميتشيجان، فى صفحة ١٢٣ من ترجمته العربية: فى أحد استطلاعات «جالوب ـ Gallup» عام ١٩٩٧، ذكر ٦٨٪ من الأمريكيين أنهم يعتقدون بوجوب تدريس قصة الخلق [التوراتية] إلى جانب نظرية التطور بالمدارس العامة.

٢ ـ فصل الكنيسة عن الدولة
الدين والسياسة فى الولايات المتحدة

العنوان الأعلى «فصل الكنيسة عن الدولة ـ Separation of Church and State» هو الأصل الذى خرجت من عباءته مصطلحات وأفكار فصل الدين عن السياسة فى مصرنا الحديثة، رغم أن المصطلح والمفهوم يذكر الكنيسة وليس الدين.

وحتى نلم بطريقة صحيحة بهذا المفهوم، يجب أن نأخذ من وقت القارئ بضع دقائق، نعود فيها معه إلى إنجلترا القرن السادس عشر، أو إنجلترا الملك اللعوب هنرى الثامن.

تزوج هنرى الثامن من كاترين أرملة أخيه بنت ملكى إسپانيا فرديناند وإيزابيلا، حتى لا تعود بثروتها الكبيرة لإسپانيا. ولما لم تنجب له ذكرًا وليًا للعرش و/ أو أحب هنرى آن پولين، أراد من البابا كليمنت السابع إلغاء زواجه السابق من كاترين، فلما رفض البابا، مضى هنرى فى طلاقه وزواجه الجديد، فحرمه البابا، فخرج هنرى الثامن من الكاثوليكية، واعتنق پروتستانتية مختلفة عما جاء به مارتن لوثر ـ الذى كان هنرى قد سبه فى كتاب يدافع فيه عن البابا ويصف لوثر بالهرطيق، وكافأه البابا على ذلك فلقَّبه: المدافع عن الإيمان ـ فكأن هنرى أراد أن يكون بابا البروتستانت الإنجليز، وهذا بالطبع يبين مدى فهم ـ أو إخلاص ـ الملك اللعوب لإصلاح مارتن لوثر، أو بالأحرى مدى جهل ـ أو عدم إخلاص ـ الملك للمذهب.

بدأ انتشار البروتستانتية فى إنجلترا، وكان ذلك أمرًا طبيعيًّا لما قاساه الإنجليز وقاسته أوروبا كلها من فساد واستبداد الكنيسة الكاثوليكية(٦٨).

ومع انتشار البروتستانتية وأفكارها، تبين لمن اعتنقها فى إنجلترا بُعد كنيسة إنجلترا الجديدة، عن البروتستانتية.

ظهرت طوائف پروتستانتية عديدة، وظهرت البيوريتانية «التطهرية ـ Puritanism» فى أواخر القرن السادس عشر، التى حاولت تطهير كنيسة إنجلترا من بقايا الكاثوليكية؛ مما أدى لنشوب الحرب الأهلية فى إنجلترا فى القرن السابع عشر، وهجرة الكثير من البيوريتانز إلى أمريكا العالم الجديد، ليعبدوا الله بالطريقة الصحيحة التى يريدونها.

عاشت إنجلترا القرنين السادس عشر والسابع عشر فى تعاقب لملوك كاثوليك، وپروتستانت، وأنصاف كاثوليك وپروتستانت، وكذلك تعاقب لاضطهاد الكاثوليك، والپروتستانت، وأنصاف الكاثوليك والپروتستانت الذين تبعوا كنيسة إنجلترا. وانتهى الأمر باستقرار كنيسة إنجلترا بشكلٍ

---

(٦٨) لم تظهر فى تاريخ أوروبا مؤسسة سيطرت وهيمنت على حياة البشر بقدر ما فعلت الكنيسة. ابتزت أموال الناس، وصادرت حرياتهم وتدخلت فى حياتهم ـ حتى معاشرة الرجل لزوجته ـ وحتى قراءة الكتاب المقدس! وحرمتهم من متع الدنيا المباحة، وكانت لها محاكمها الخاصة فى كل أوروبا، جيشت الجيوش وأشعلت المؤامرات والحروب، ومنها الحروب الصليبية داخل أوروبا وخارجها، ونصبت محاكم التفتيش، وساهمت = = بالنصيب الأوفر فى إحراق وقتل على الخوازيق عشرات الآلاف من النساء فيما هو معروف بمطاردة الساحرات، وبلغت بعض التقديرات مليون امرأة، وعاقبت العلماء، وكل ذلك فى الوقت الذى عاش فيه الكثير من الباباوات عيشة الملوك والأباطرة الفاسدين الفاسقين والمبذرين ـ يمكن قراءة ذلك فى قصة الحضارة الأجزاء: ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢.

خاص من البروتستانتية، وتعرض الكاثوليك للاضطهاد حتى منتصف القرن التاسع عشر، إن لم يكن حتى نهايته، وحُرموا من المناصب العامة حتى صدور قانون ١٨٢٨ فى إنجلترا الذى أباح لهم ذلك.

ونذكر القارئ بأن رسالة چون لوك ـ رائد رواد التنوير والليبرالية فى عالم الغرب ـ فى التسامح، رفضت أن يمتد ذلك التسامح ليشمل الكاثوليك، ناهيك عن اليهود والمسلمين.

كان هناك تمييز بين طوائف البروتستانت، ضد كل من لا تتطابق بروتستانتيته مع كنيسة إنجلترا، وكان يعاقب على ذلك، فاختلاف طريقة الصلاة أو أقوالها، أو التعميد أو ما إلى ذلك كان يُعَرِّض المسيحى البروتستانتى للعقاب الذى قد يكون دفع غرامة أو السجن، إلى أن صدر «قانون التسامح ـ Tolerance Act» فى ١٦٨٩، الذى سمح بالعبادة البروتستانتية دون الاضطرار لأن تكون متوافقة مع طقوس كنيسة إنجلترا، وسمى أولئك البروتستانت بالـ «Nonconformists» أى غير المتوافقين ـ واستثنى قانون التسامح المسيحيين الموحدين «Unitarians»فلم يشملهم التسامح ـ ولكن ذلك التسامح لم يسمح للبروتستانت غير المتوافقين بتولى المناصب العامة.

انتقل كل ذلك إلى:

أرض الوعد الجديدة: أمريكا

وعندما قامت الثورة الأمريكية (١٧٧٥ ـ ١٧٨٣) على ظلم الملك الإنجليزى وحكومته، كانت كنيسة إنجلترا هى المهيمنة ـ وبجوارها

كنيسة أخرى هى كنيسة «Congregation» هيمنت على ثلاث ولايات ـ فكانت تجمع كل منهما الضرائب لمصلحتها، وتُعاقب الطوائف البروتستانتية الأخرى،وتُعاقب قسسها إذا ضبطوا متلبسين بالوعظ بما لا يتفق مع وعظها وطقوسها، وتراوح ذلك العقاب بين الغرامة والحبس(٦٩). وكان ذلك يتم بقوة وسطوة الحكومة الإنجليزية ـ وقوة وسطوة حكومات الولايات ـ رغم أن معظم بروتستانت أمريكا كانوا غير متوافقين مع كنيسة إنجلترا «Nonconformists»، وتحملوا ذلك القمع والظلم إلى أن قامت الثورة، فزالت سلطة الحكومة الإنجليزية وسطوتها، وزالت معها سلطة كنيسة إنجلترا وسطوتها.

ذكرنا من قبل أنه قد ظهرت قبل قيام الثورة واستقلال أمريكا عدة طوائف بروتستانتية، وعانت كل تلك الطوائف ـ عدا التابعة لكنيسة إنجلترا طبعًا، وتمتعت كنيسة «Congregation» بوضع مشابه لكنيسة إنجلترا فى ثلاث ولايات ـ من تأييد الحكومة الإنجليزية لكنيستها التى تُسمى بالإنجليزية «Established Church»، أى الكنيسة التى أسستها الدولة وتساندها الدولة ـ ويُمكن أن نطلق عليها بالعربية

---

(٦٩) جاء فى كتاب «الفصل بين الكنيسة والدولة ـ Separation of Church and State» لمؤلفه فوريست تشيرش من منشورات Beacon Press, Boston، ٢٠٠٤: كثيرًا ما كان الوعاظ [غير المتوافقين] يُعتقلون فى ڤيرچينيا بتهمة إزعاج الأمن. قال = =الادعاء فى قضية أسفرت عن حبس خمسة وعاظ معمدانيين:... هؤلاء الرجال مصدر إزعاج كبير للأمن! ودافع باتريك هنرى - الذى تخصص فى الدفاع عن المساجين بسبب مخالفتهم لكنيسة إنجلترا ـ قائلا: هؤلاء الرجال متهمون بأنهم يوعظون بإنجيل ابن الله! وجاء فى صفحة ١٧: كان المعمدانيون يدفعون غرامات، يُجلدون بالسوط، ويُحبسون مرارًا وتكرارًا فى ماسا تشوستس، بسبب مخالفات دينية.

«الكنيسة المؤسسة» ـ وتمنع مساندة بقية الكنائس، بل وتضطهدها.

طالبت الكنائس والطوائف البروتستانتية الأخرى من آباء الثورة، ومن معهم وحولهم حمايتهم من هذا التمييز الدينى، وإنهاء هذا الوضع، فماذا يفعل رجال الثورة، أو الآباء المؤسسون كما يُطلق عليهم فى التاريخ الأمريكى؟.

هل يختارون طائفة أو كنيسة پروتستانتية أخرى يميزوها بوضع «الكنيسة المؤسسة ـ Established Church» على حساب الطوائف أو الكنائس الپروتستانتية الأخرى؟ وعلى حساب كنيسة إنجلترا بالذات؟.

كان الوضع بعد نجاح الثورة والاستقلال مضطربًا ولا ينبئ بالنجاح ولا الاستقرار(٧٠). فلم تكن إنجلترا راضية بذلك الاستقلال، وكانت فرنسا على الحدود الشمالية فى كندا ذات أطماع استعمارية فى نيوإنجلاند، وإسپانيا تتربص فى الجنوب والغرب، والسكان الأصليون ـ أو الهنود الحمر ـ على حدود الولايات من كل جانب، كل ذلك علاوة على أن هناك نسبة معتبرة من المهاجرين وقفت فى صف إنجلترا، ونسبة معتبرة أخرى وقفت على الحياد فى الحرب الثورية.

وبالطبع كانت كنيسة إنجلترا هى أولى الكنائس المُستبعدة من وضع «الكنيسة المؤسسة»، فقد خاف الثوار أن تعمل لمصلحة التاج، وتعود بالحال لما كان عليه قبل الثورة.

---

(٧٠) لم يكن فى ذهن الثوار إعلان الحرب على إنجلترا أو الاستقلال عنها، وكان كل طلبهم ألا تُفرض عليهم ضرائب بدون أن يشتركوا فى البرلمان الإنجليزى، وتطورت المعارضة حتى أصبحت ثورة، ثم حرب ثورية، ثم استقلال.

جاء القرار بألَّا تساند الحكومة الفيدرالية أى كنيسة أو أى طائفة پروتستانتية على حساب الكنائس والطوائف الپروتستانتية الأخرى، حتى لا يزيد الانشقاق الدينى ـ بين كنائس وطوائف الپروتستانت ـ من خطورة الوضع.

بعث إيزاك باكوس، أحد قادة الكنيسة المعمدانية(٧١)، رسالة إلى چيفرسون يطلب حماية الدولة للكنيسة من الاضطهاد والقمع، وأنه قد أُتهم بأنه خائن ـ رغم تأييده للثورة على الإنجليز ـ لأنه غير متوافق «Non conformist» مع كنيسة إنجلترا.

فى هذا السياق صدر التعديل الدستورى، والذى تُسمى مواده العشر الأولى وثيقة الحقوق، بمنع تأسيس دين، والمقصود به منع أن تدعم الدولة كنيسة پروتستانتية على حساب الكنائس الأخرى، ثم كتب توماس چيفرسون كلمته المشهورة: الفصل بين الكنيسة والدولة.

وهذا المصطلح أو المفهوم «الفصل بين الكنيسة والدولة» هدفه الرئيسى منع قمع الدولة للطوائف والكنائس الپروتستانتية المتعددة فى أمريكا، ومنع تأييد وتمييز إحدى الطوائف والكنائس على الأخرى، فهو حماية للطوائف والكنائس الپروتستانتية من الدولة.

ولكن من هو توماس چيفرسون الذى وضع التعديل الأول للدستور وجاء منه ذلك المفهوم والمصطلح الشهير؟.

---

(٧١) صارت الكنيسة المعمدانية من أكبر طوائف الپروتستانت فى الولايات المتحدة الآن، ومن أعمدة اليمين المسيحى، وهو الآن قوة كبيرة مؤثرة بشدة فى سياسة الولايات المتحدة داخليًا وخارجيًا.

وُلد چيفرسون فى ١٣ أبريل ١٧٤٣ فى ڤيرچينيا، كانت له مزارع، وأصبح محاميًا، وعضوًا فى برلمان ڤيرچينيا قبل الثورة.

أصبح حاكمًا لڤيرچينيا قبيل الثورة. شارك بكتاباته عن حقوق الأمريكيين البريطانيين فى تنوير الرأى العام الأمريكى، وشارك فى المؤتمرات السياسية التى أسفرت عن المطالبة بالاستقلال، مما أدى فى النهاية للثورة وحرب الاستقلال عن بريطانيا، وصاغ وثيقة الاستقلال.

بعثه چورچ واشنطن ـ أول رئيس لأمريكا ـ سفيرًا فى باريس فى ١٧٨٥، ثم عينه أول وزير للخارجية (١٧٩٠ - ١٧٩٣)، ثم أصبح نائبًا لچون آدامز ـ الرئيس الثانى لأمريكا (١٧٩٧ - ١٨٠١) ـ وخلفه رئيسًا لأمريكا دورتين (١٨٠١ - ١٨٠٩). تمتع چيفرسون بتعليم وثقافة عالية، ورؤية واسعة متنورة.

كان چيفرسون ربوبيًّا، مثله مثل ماديسون وفرانكلين وتوماس پين، وربما كان واشنطون أيضًا ربوبيًّا.

فما هى الربوبية «Deism»؟

ظهرت الربوبية كرد فعل لأفكار التنوير الأوروبى وانتشرت من إنجلترا فى مطلع القرن السابع عشر، (كرفض للمسيحية التقليدية) طبقًا لما جاء فى بريتانيكا، بينما جاء فى «الدين والسياسة فى الولايات المتحدة»: «أكدت العقلانية الدينية بشكل قوى على استخدام العقل فى الدين والأمور الأخرى على السواء. ومن أجل استخدام العقل

فى الدين، يجب تبسيط المذاهب الدينية ونبذ نظريات اللاهوت غير الضرورية». والمقصود تجسيد الإله، والتثليث، والخطيئة الأصلية، وتحول الخبز والنبيذ إلى جسد المسيح ودمه عند تناول القربان، ومثل هذا. وجاء فى «الدين والسياسة فى الولايات المتحدة»:

> كان چيفرسون مسيحيًّا أيضًا ولكن ليس بالمعنى التقليدى. لقد كان مسيحيًّا بإيمانه القوى بتعاليم المسيح الأخلاقيه. فقد نسب إلى المسيح كل الفضائل الإنسانية، ورفض ألوهيته، كذلك رفض معظم الأرثوذكسية التقليدية للمسيحية. وآمن چيفرسون بوجود حكمة عظيمة فى تعاليم المسيح، إلا أن هذه الحكمة قد حرفها آخرون مثل رجال الدين والمؤسسات الدينية المنظمة لأسباب أنانية. وأراد چيفرسون فك طلاسم وتبسيط تعاليم المسيح. ونادى بوجوب قراءة الناس الإنجيل بنفس طريقة قراءتهم أى كتاب آخر، وأن عليهم استخلاص جواهر الحكمة منه ونبذ الأجزاء الخطأ. ولهذا فقد غربل وانتقى من الأناجيل العادية (مستخدمًا النسخ اليونانية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية) إنجيله الخاص (إنجيل چيفرسون) وكان بعنوان «حياة وأخلاق المسيح». وقد نبذ الكم الأكبر من الإنجيل، وتخير جزءًا صغيرًا من الأناجيل الأربعة وهو الذى شعر أنه صحيح ونافع.

وحتى يتضح أكثر المجال الفكرى الذى عاش فيه جيفرسون، نذكر فى الهامش أسفل الصفحة من نفس الكتاب ما جاء عن معاصريه بنيامين فرانكلين، وچون آدامز[٧٢].

---

(٧٢) بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠)

أفضل وصف لبنيامين فرانكلين السياسى والكاتب والمخترع فى إطار هذه الدراسة أنه ربوبى مسيحى، يشعر أن الدين وأن كل الأديان عمومًا والمسيحية بصفة خاصة، تحقق نفعًا للمجتمع. ومعتقداته الأساسية موجودة فى سيرته الذاتية وفى رسالة كتبها فى ٩ مارس ١٧٩٠ قبيل وفاته إلى عزرا إستايلز رئيس جامعة يال. أعرب فرانكلين= = فى رسالته هذه عما يعتبره المبادئ الأساسية للدين القويم قائلًا: «أنا أؤمن بإله واحد خالق الكون الذى يتولاه بعنايته الإلهية، وهو وحده المستحق للعبادة، وأن أفضل ما نقدمه له هو تقديم الخير لعباده الآخرين. كما أؤمن أن روح الإنسان خالدة وسوف تعامل بعدل فى الحياة الأخرى حسب سلوكها فى الحياة الدنيا».

وعبر فرانكلين فى هذا الخطاب عن إيمانه بأن نظام الأخلاقيات والدين الذى تركه المسيح هو الأفضل فى العالم، إلا أن البعض تسببوا فى إفساده. وتشكك فرانكلين فى ألوهية المسيح. ووفقًا لوجهة نظره، الدين يساعد فى دعم المجتمع الأخلاقى.

چون آدامز (١٧٣٥ ـ ١٨٢٦)

مثل چيفرسون، يمكن وصف چون آدامز ثانى رؤساء الولايات المتحدة كربوبى مسيحى، آمن بتعاليم المسيح الأخلاقية ولم يؤمن بألوهيته. وفى ماساتشوستس كان آدامز أحد الليبراليين الدينيين ممن انفصلوا عن الأبرشيين التقليديين ليصبحوا موحدين.

كان آدامز ناقدًا لاذعًا لما رآه بمثابة انحراف المسيحية من خلال الدين المؤسساتى وبسبب النزاعات اللاهوتية المستديمة. وفى رسالة موجهة إلى ف.أ. ديركمب بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٨١٦، أشار آدامز إلى أن هذا الانحراف جعل من الديانتين اليهودية والمسيحية أكثر الديانات دموية على الإطلاق، وأضاف أن العديد من الإنجازات الثقافية قد أسىء استخدامها لخدمة أغراض ممقوتة من الدجل والخرافات.

وآمن آدامز بحرية الدين، وعمل من أجلها. فلم يؤمن بأحقية أى جماعة فى فرض مذاهبها الدينية على الآخرين، ويجب أن يترك العقل البشرى حرًا من المعتقدات الجازمة.

ربما نكون الآن على علم أفضل بالسياق الذى ظهر فيه المفهوم والمصطلح (فصل الكنيسة عن الدولة)[٧٣]، أى عدم تمييز الدولة لكنيسة أو طائفة پروتستانتية على الكنائس أو الطوائف الپروتستانتية الأخرى، وهو مماثل لدعوة چون لوك لتسامح الكنائس الپروتستانتية مع بعضها البعض، دون أن يمتد ذلك التسامح للكاثوليك، ولا لليهود ولا للمسلمين.

٣- تنحية الدين عن السياسة والحياة العامة هو سبب تقدم الغرب

هذا أحد كليشيهات الپروپاجندا التى قصفتنا بها بعض دوائر الغرب المحبة للإسلام.

دائما أبدًا يفتتن الناس بالثرى القوى، على مستوى الأفراد والجماعات والدول، وخاصة إذا استطاع هذا الوجيه ـ الثرى القوى ذو النفوذ ـ أن يظهر بمظهر المحسن الكريم، وهنا يقوم الإعلام ومزيفو التاريخ بدورٍ جوهرى.

ولا أستطيع هنا مقاومة ذكر إحساسى بحسن نية منى الشاذلى اللانهائى، حينما استضافت منذ بضعة أشهر السفير البريطانى فى مصر، والذى بدأ يتكلم وكأنه الحكيم والمحسن المثالى، الذى

---

(٧٣) ومع كل ما سبق ذكره، قال كبير قضاة المحكمة العليا فى الولايات المتحدة ويليام رنكويست فى ١٩٨٥: «الحائط الفاصل بين الكنيسة والدولة» استعارة مبنية على تاريخ سيئ، وأثبتت فشلها كمرشد فى القضاء، فيجب التخلى عنها بصراحة وبشكل واضح ـ أصول التطرف: اليمين المسيحى فى أمريكا ـ صفحة ٢٥٣.

يتفضل علينا بالنصح والإرشاد، ويسبغ علينا كرمه وفضله فى كيف نحل المشكلة الفلسطينية... ذلك الوجيه الأمثل - كما أراد أن يظهر - هو ممثل المجرم الرئيسى والمتهم الأول فى ارتكاب مآسٍ أصابت الشرق الأوسط فى القرون القليلة الماضية، ومنها مأساة فلسطين[٧٤]، كذلك جسدت حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا وروسيا الإجرام الدولى فى إطلاق «استباحة الآخر» طوال تلك القرون القليلة الماضية، فاستنزفوا ثروات الشعوب، واستحلوا جهودها ودماءها، وأرواحها، فأبادوها إذا لزم الأمر، كما حدث فى أمريكا وأفريقيا وآسيا[٧٥].

(٧٤) نذكر القارئ باحتلال بريطانيا لمصر منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر حتى خمسينيات القرن العشرين، ثم ارتكابها مع فرنسا وإسرائيل العدوان الثلاثى الغادر على مصر فى ١٩٥٦، ثم مؤامرتها لتحويل ماء النيل عن مصر، وعدم ارتكابها تلك الجريمة يعود لسبب وحيد - كما ذكرت الوثيقة التى نشرت جريدة الأهرام جزءًا منها فى ٢/ ١٢/ ٢٠٠٦ - هو خوفها من الفشل، الأمر الذى كان سيؤدى لارتفاع شعبية عبد الناصر. ونذكر القارئ أيضًا بأن بريطانيا العظمى اعتقلت أحد أبطال المقاومة فى بورسعيد وخطفته= = إلى قبرص، وهددته بأن تفقأ عينيه إذا لم يقل ما تريد فى الإذاعة، فرفض محمد مهران، فأوفت بريطانيا العظمى بوعدها وفقأت عينى البطل المصرى، وهو ما زال حيًّا يرزق فى بورسعيد مدينة الأبطال.

وما زالت الألغام التى زرعتها بريطانيا وألمانيا فى الحرب العالمية الثانية تعوق التنمية فى شمال الصحراء الغربية، وتصيب وتقتل المواطنين المصريين، ثم يتحدث الوجيه الأمثل عن مساعدات بريطانيا لمصر ولفلسطين.

(٧٥) يكفى من الأمثلة هنا ما فعلته بريطانيا فى مصر والهند والصين، وما فعلته فرنسا فى الجزائر. وتم ذلك التوسع الاستعمارى تحت مزاعم وشعارات متعددة منها: حماية الأقليات - ضبط الميزانية - الحماية - حمل الرجل الأبيض - «السيهات الثلاثة - 3 Cees»: «نشر المسيحية - نشر الثقافة والحضارة المسيحية - التجارة - Chritianity - Culture - Commerce»

وهذا هو أحد الأسباب الرئيسية فى هيمنة تلك القوى على العالم، والسبب الرئيسى الثانى ـ بعد استحلال الآخر ـ هو تفوقها فى تكنولوچيا السلاح والحرب[٧٦].

أما قضية تقدم الغرب، ففيها نظر. الغرب أكثر قوة وأكثر ثراءً، وأكبر اقتصادًا، وأعلى صوتًا وإعلامًا.... ولكن ليست هذه هى المعايير الوحيدة للتقدم... لكنها بكل تأكيد معايير الهيمنة والتسلط.

فعلى سبيل المثال، الولايات المتحدة: يعيش حوالى خمس سكانها تحت خط الفقر، وحوالى نصف السكان بدون تأمين للعلاج، الذى يكلف مبالغ فوق طاقة الأمريكى من الطبقة المتوسطة، وتستهلك

---

(٧٦) لمن يريد الاستزادة، أرشح الكتب الآتية للقراءة:

* الجذور الشرقية فى الحضارة الغربية. چون إم. هوبسون، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
* الشركة التى غيرت العالم. نك روبينز، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
* ركل السلم بعيدًا. د. ها ـ چون تشانج، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
* الكتاب المقدس والاستعمار. القس مايكل بريور، من إصدارات مكتبة الشروق الدولية.
* ٥٠٠ عام وما زال الغزو مستمرًا ـ ناعوم تشومسكى، دار المدى.
* The Military Revolution 1500 - 1800, Parker - Cambridge, 1988 - 1989 - 1996 - 2005.
* The Pirate Quean, Susan Ronald - Harper Perennial, Harper Collins -2007.
* Capitalism & Slavery, Eric Williams - The University of Northr Carolina Press, 1941, 1994.
* The Blood Never Dried, Newsinger - Book Marks Publications, 2006.
* The Tools of Empire: Technology and European Imperialism in the Nineteenth Century, Daniel R. Headrick - Oxford University Press, 1981.

نصف مخدرات العالم، وبها أعلى نسبة جريمة، وأعلى نسبة مساجين لعدد السكان فى العالم، وتعانى أكبر فجوة فى الدخول بين الدول الصناعية، فقد جنت شريحة الـ ١٪ الأغنى ربع الدخل فى عام ٢٠١٠، وكدست ٤٠٪ من الثروة!، وفوق كل ذلك يحمل مواطنيها أعلى مديونية فى العالم، وهى «على شفا انهيار اقتصادى وانهيار مالى لولا قوتها العسكرية، ولولا أن العالم يستخدم الدولار كعملته الدولية»، والفقرة الأخيرة هى من تصريح حديث لچيمس بيكر وزير خارجيتها الأسبق الذى نشرته جريدة الأهرام فى ٣٠/ ٤/ ٢٠١١.

وليس هناك من أسال دماء، وارتكب قمعًا وظلمًا فى العالم مثل إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا والولايات المتحدة، وتحاول إسرائيل اللحاق بهم، لولا عمرها القصير، فهل هذه هى معايير التقدم؟.

بعد كل ذلك، من قال إن الولايات المتحدة وإسرائيل، أو حتى إنجلترا أخرجت الدين من سياستها وحياتها؟. كما ذكرنا سابقًا، منذ حوالى قرن يردد المفكرون والكتاب فى الولايات المتحدة مقولة: حضارتنا وثقافتنا قائمة على أسس يهودية مسيحية، بقدر ما تردد بعض وسائل الإعلام وبعض السياسيين والمفكرين فى مصر اليوم القول بأنه لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين، أو المطالبة بالدولة المدنية(٧٧).

---

(٧٧) لا يوجد فى مصطلحات علم السياسة الغربى مثل هذا المصطلح، وقصد مردديه فى مصر هو فصل الإسلام عن الحياة وعن الدولة، رغم أنه فى عالم الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، حيث يستقون ويستلهمون الأفكار، يتردد بكثرة مصطلح الدين المدنى للولايات المتحدة، والمؤسسة الدينية المدنية.

لقد اعتبر البيوريتانز، وبصفة عامة الواسب، المهاجرون إلى أمريكا أنهم شعب الله المختار يخرجون إلى إسرائيل الجديدة، فأمريكا هى الأرض الموعودة، وقال چون أوسوليڤان: قُدر لنا [أمريكا] أن نبين للجنس البشرى عظمة المبادئ السماوية، وأن نؤسس على الأرض أنبل معبد لتسبيح وعبادة الأعلى والأقدس ـ أعتقد أننا سنكون خونة لرسالتنا النبيلة إذا رفضنا الأهداف العليا للعناية الإلهية [يقصد التوسع] ـ أليست لنا رسالة لنؤديها؟ وهل منحنا الأب القدير هبات وميزنا باعتبارنا شعبه المختار لنبلى ونتعفن فى أنانيتنا؟[٧٨] [يقصد إذا رفض الأمريكيون الدعوة للتوسع].

شاعت بين الأمريكيين ـ قديمًا وحديثًا ـ أن أمريكا مكلَّفة بمهمة إلهية، برسالة للبشرية، وأنها آخر أفضل أمل للعالم[٧٩].

ويمكن لكل قارئ أن يتذكر سياسة أوروبا الغربية والولايات المتحدة فى الشرق الأوسط، وكيفية اجتماعهم على تأييد إسرائيل، رغم كل جرائمها وانتهاكاتها لقرارات الأمم المتحدة وحقوق الإنسان[٨٠].

---

(٧٨) أرض الميعاد والدولة الصليبية، مكدوجال، دار الشروق صفحة ١٢٠، ١٤٢، ١٥١.

(٧٩) فى مقالة فى المجلة الأمريكية المشهورة «Foreign Affairs» فى عدد يناير ٢٠٠٧، قال والتر راسيل ميد: للدين أثر قوى على السياسة والسياسيين وعلى الهوية والثقافة الأمريكية، ويعمل الدين على تحديد شخصية الدولة، ويساهم فى تكوين أفكار أمريكا عن العالم، ويفسر إحساس الأمريكيين بأنفسهم كشعب مختار ـ ترجم حمدى عباس المقالة، ونشرتها مكتبة الشروق الدولية بعنوان: بلد الله: الدين فى السياسة الخارجية الأمريكية.
ويمكن الاستزادة فى معرفة كيف يعتبر الأنجلوساكون أنفسهم شعب الله المختار بقراءة الكتب الآتية: أرض الميعاد والدولة الصليبية، مكدوجال من منشورات دار الشروق، المسيح اليهودى ونهاية العالم، رضا هلال، الشروق الدولية، الشعب المختار: الأسطورة التى شكلت إنجلترا وأمريكا، كليفورد لونجلى، الشروق الدولية.

(٨٠) قُبيل صدور هذا الكتيب، جاء فى أهرام ٣ سبتمبر ٢٠١١ مبشرات تقرير الأمم المتحدة عن الهجوم الإرهابى للقوات الإسرائيلية على السفينة التركية التى تنقل طعام =

بعد كل ما سبق نذكر القارئ بأن موجة تهميش الدين من الحياة العامة فى أوروپا ـ بسبب ممارسات الكنيسة وغموض عقيدتها فى التثليث، وتجسيد الله وصلبه، وأكل المصلين جسد المسيح وشربهم دمه، وغير ذلك ـ لم تبدأ إلا فى منتصف القرن العشرين، وبعد الحربين العالميتين ـ وهما فى الأصل حربين أوروپيتين أو مسيحيتين، جرجرت أوروپا بقية العالم فيهما ـ حين فقدت أوروپا القناعة بقيمها، وكانت أوروپا الغربية قد بسطت هيمنتها على معظم العالم قبل ذلك بحوالى قرن.

ونذكر القارئ بأنه بعدما نشبت ثورات أوروپا (فرنسا، والنمسا، وما أصبح ألمانيا وما أصبح إيطاليا، وغيرها) فى مطلع عام ١٨٤٨ ضد التحالف القديم بين الكنيسة والملوك، استطاعت القوى المحافظة استعادة هيمنتها فى خريف العام نفسه، واستمرت الأنظمة القديمة حتى نهاية القرن التاسع عشر. وفى فرنسا التى كانت تُسمى بنت الكنيسة حتى قيام ثورتها فى عام ١٧٨٩، جاء الإمبراطور ناپليون الثالث فى عام ١٨٥٢ ليعلن: نريد أن نحول الشعب إلى ميدان الفضيلة والدين والرخاء ـ تاريخ القرن التاسع عشر، قاسم وحسنى، صفحة ١٥٣، الطبعة السابعة ١٩٣١، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة[٨١].

=وأدوية لغزة المحتلة والمحاصرة: إن القوات الإسرائيلية التى اعتلت [هاجمت!] السفينة واجهت مقاومة ثم تطلب الأمر استخدام القوة من أجل حماية نفسها!.

(٨١) بل إنه بعد الثورة الفرنسية بخمسة عشر عامًا، فى عام ١٨٠٤ توج البابا ناپليون على مثال تتويج البابا شارلمان على الإمبراطورية الرومانية المقدسة قبل ذلك بعشرة قرون، ولم يمنع ذلك نشوب صراع لاحق على أراضى إيطاليا بين ناپليون والبابا فى ١٨٠٨، فحرم البابا ناپليون، فما كان منه إلا أن قبض عليه بالقوة العسكرية وسجنه؛ مما أفقد ناپليون تعاطف الكاثوليك فى أوروپا.

أما الولايات المتحدة، فيراها الدارسون، ومنهم ريتشارد هاس مسئول التخطيط بالخارجية الأمريكية: أكثر دول العالم تدينًا[٨٢].

٤- كيف نحافظ على حقوق المسيحيين؟!

طبقًا للتصريحات الأمريكية والأوروبية المعلنة، صار هناك ملف للمسيحيين والتميز الديني في مصر لدى تلك الحكومات التي لم تتوقف شعوبها عن ممارسة التميز الديني والعنصري - بامتياز - منذ نشأتها وحتى اليوم.

كذلك دعا بابا الفاتيكان لحماية المسيحيين في مصر، ونذكر القارئ بأن الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر قد بدأت بدعوة بابا الفاتيكان لحماية الحجاج المسيحيين من الأتراك في بيت المقدس.

وطبقًا للتصريحات الإسرائيلية، والدراسات والكتب الإسرائيلية، المنشورة باللغة العبرية والإنجليزية، يجب تفتيت وتقسيم العالم العربي حتى تحكم إسرائيل من جبل صهيون.

ستعمل تلك القوى على «تسمين»، و«تسخين» ذلك الملف بكل الوسائل والأساليب.

وقد رأينا ونرى تقسيم السودان[٨٣]، وقبل ذلك ما حل بالعراق، ومحاولة إنشاء دولة كردية.

---

(٨٢) قال ذلك على شاشة التليفزيون الحكومي المصري بتاريخ ٢/ ٣/ ٢٠٠٣مع الدكتور عبد المنعم سعيد.

(٨٣) من يرغب الاطلاع على دور إسرائيل في جنوب السودان، وفي أفريقيا، يمكنه الاطلاع على: إسرائيل في أفريقيا - حسين حمودة، إسرائيل في النيل - د. زبيدة عطا، والكتابان من منشورات مكتبة الشروق الدولية.

نعود إلى مصر.

تبين إحصاءات السكان التى تمت فى القرن الماضى تحت سيطرة الاحتلال البريطانى أن نسبة المسيحيين فى مصر تراوحت بين ٦-٨٪، ويعرف معظمنا أن الشعب المصرى متدين، سواء كان مسلمًا أو مسيحيًّا، وأن الدين له قدسية خاصة عند المصريين.

فالمسلمون يريدون اتباع دينهم، والمسيحيون يريدون اتباع دينهم، وبدون ذلك، يتحول المصرى إلى كومة عظام ودم ولحم وأعصاب مُستَهلَكة، لا تصنع حاضرًا ولا مستقبلًا، ولا تبنى حضارة. فما العمل؟.

هل يتخلى المسلمون عن دينهم لصالح المسيحيين؟.

هل يتخلى المسيحيون عن دينهم لصالح المسلمين؟.

هل يتخلى المسلمون والمسيحيون عن دينهم؟.

ليس هناك حل إلا أن يتمسك المسلمون بدينهم، ويتمسك المسيحيون بدينهم، ويرفض الاثنان دعاوى الفتنة، سواء كانت وافدة من إسرائيل أو أمريكا أو أوروبا أو الفاتيكان، أو أشعلتها بعض القوى التى لا تكترث بمصر ولا بالمصريين ـ تاريخًا وحاضرًا ومستقبلًا ـ ولكن تقاتل فى سبيل مكاسبها المحدودة والقصيرة، ولو على جثة مصر.

ومعلوم أنه فى الإسلام والمسيحية: لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وبأن الكنيسة رفضت تدخل الدولة مرارًا وتكرارًا فى شئونها،

وأن البابا قال مرارًا وتكرارًا فى قضية الطلاق والزواج الثانى للمسيحيين: ارجعوا للقرآن، وقال لن يجبرنا أحد على مخالفة الإنجيل[٨٤].

وقد بينت آيات سورة المائدة أن القرآن يأمر بأن يحكم أهل الإنجيل بما جاء فيه.

سيعترض البعض بأنه قد تظهر بعض الخلافات من جراء ذلك، ولكن تاريخ مصر، والذى هو أفضل تاريخ لشعب على وجه الأرض فى احتضان الأديان وعيشها فى سلام وأمان ـ برغم تضليل وتزوير الإعلام العالمى والمحلى ـ يرد على ذلك، والخلافات تنشب بين أبناء الدين الواحد، وبين أعضاء المذهب أو الطائفة الواحدة فى الدين الواحد، بل وبين الأحزاب، وداخلها، والعبرة فى احتواء الخلافات، وتحويلها إلى ثراء فكرى وحضارى بدلًا من إشعال الفتن من ورائها.

ونذكِّر القارئ أنه فى جلسة مجلس الشعب بتاريخ ١٩ يوليه ١٩٧٩، وافق جميع أعضاء مجلس الشعب ـ بما فى ذلك كل أعضائه المسيحيين ـ على تعديل المادة الثانية من الدستور لتصبح: الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع، واشترك عدد من الأساتذة والخبراء المسيحيين فى برنامج تقنين الشريعة.

بل إن البابا شنودة صرح لجريدة الأهرام فى ٦ مارس ١٩٨٥ قائلًا:

---

(٨٤) اللافت للنظر أن كثيرًا من القسس الذين اصطفوا وراء البابا فى رفضه تدخل الدولة فى أمر الزواج الثانى، وما إلى ذلك من شئون المسيحيين، ويرددون وراءه أن طاعة الإنجيل مُقدمة على كل شىء، يطالبون بإلغاء المادة الثانية من الدستور، انظر على سبيل المثال ما قاله الأنبا بسنتى لجريدة الدستور فى ٢٣ فبراير ٢٠١١ على صفحة ٧.

إن الأقباط فى ظل حكم الشريعة الإسلامية يكونون أسعد حالًا وأكثر أمنًا، ولقد كانوا كذلك فى الماضى حين كان حكم الشريعة هو السائد.

٥- الخوف من الدولة الدينية (الثيوقراطية)

الدولة الدينية التى يخاف بعض الناس منها هى الدولة التى يقول فيها الحاكم إنه يحكم بالحق الإلهى للملوك فى الحكم، أو يقول فيها البابا إنه معصوم من الخطأ، فلا يحق لأحد أن يراجعه فيما يقول ويفعل، ولا ينصت لصوت الشعب، فهو ممثل الله على الأرض، وعلى الجميع أن يطيعونه.

جسد تحالف الكنيسة الكاثوليكية مع الملوك والأباطرة ذلك الحكم فى العصور الوسطى، وتمسك الملوك والأباطرة بفكرة حقهم الإلهى فى الحكم، حتى بداية العصر الحديث، بل استمر ذلك فى ألمانيا وفرنسا وغيرهما لما بعد منتصف القرن التاسع عشر، كذلك مارس الباباوات ذلك الحكم الإلهى على العالم كلما سمحت ظروف القوى بذلك، وقام ذلك المفهوم على نصوص كتابية(٨٥)، وعلى تقاليد كنسية عاشت لأكثر من عشرة قرون.

---

(٨٥) منها على سبيل المثال: رسالة بولس إلى روما: الخضوع للسلطات: على كل نفس أن تخضع للسلطات الحاكمة، فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطات القائمة مرتبة من قبل الله، من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ـ ١٣:١ ـ ٢، وفى رسالة بطرس الأولى: ... فإكرامًا للرب، اخضعوا لكل نظام يدير شئون الناس: للملك باعتباره صاحب السلطة العليا، وللحكام باعتبارهم ممثلى الملك... خافوا الله، أكرموا الملك ـ ٢: ١٣-١٧، ومنها على الجانب الآخر لتبرير حكم البابا، قول البابا جريجورى السابع: من يستطيع فتح السماء وغلقها، ألا يستطيع الحكم بأمور الأرض؟ ـ الفكر السياسى، د.حورية مجاهد، الأنجلو، صفحة ١٣٣.
ونشرت جريدة الشروق فى ٦ أكتوبر ٢٠١٠ فى صفحتها الثالثة على لسان القس مكارى يونان:... قالوا له إن البابا شخص غير عادى لا يمكن أن يكون من عالمنا، فهو لا يصلح فقط لقيادة الأقباط بل لقيادة العالم، بينما جاء العنوان الرئيسى: القس مكارى يونان يعتبر الهجوم على البابا هجومًا على المسيح نفسه.

ليس لشريعة الإسلام علاقة بأيٍّ مما سبق، بل إنها تنقض كل ما سبق!. فعلى سبيل المثال جاء فى القرآن: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فقد وضح القرآن، وأكد وكرر، وكذلك السنة، على بشرية الرسول، وقد قال الرسول إنه يأتيه الخصوم، كلٌ بحجته، فإذا كان أحدهم أفصح بحيث يجعله يقضى له بغير حق، فإنما هو يأكل نارًا عندما يأخذ حق خصمه.

وقال لمن أصابته الهيبة من محادثة نبى الرحمة: هوِّن عليك! إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد!.

فلا يستطيع أحد من المسلمين أن يدعى العصمة أو المعرفة الكلية أو الحق المطلق.

ولم يذكر القرآن، ولا السنة بالطبع، أن من صلاحيات الرسول أن يُدخل أحدًا الجنة، أو يلقى بآخر فى النار، ولا أن يغفر الذنوب لأحد، بل يُطلب الغفران من الله وحده، الذى لا يغفر الذنوب سواه. وأيضًا لم يذكر القرآن ولا السنة، أن الرسول يُحلِّل ويُحرِّم من نفسه، بل جاء فى سورة الحاقة ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

لم يسلم الرسول لأحد مفاتيح الملكوت؛ لأنه هو نفسه لم يمتلكها ولم يزعم امتلاكها، فقد جاء فى سورة الأحقاف ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[٩].

كذلك جاء ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦]، وجاء ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]

وليس فى الإسلام ما يجعل أحدًا من المسلمين ـ أيًا كان علمه أو نفوذه ـ يزعم بأنه يحتكر الكلام باسم الله أو الإسلام أو الشرع، فجاء فى القرآن ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وجاء ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وجاء فى صحيح مسلم: «.. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتُصيب حكم الله فيهم أم لا» ـ كتاب الجهاد والسير.

وقد قال الرسول حديثًا يجعل لكل عالم مسلم الحق فى أن يعترض على أى فتوى لشيخ الأزهر أو المفتى ـ أو حتى الاثنين معًا ـ قال الرسول: «... اسأل قلبك وإن أفتاك الناس»، ولهذا قال مالك: كل إنسان يؤخذ من كلامه ويُرد، إلا صاحب هذا المقام ـ وأشار إلى المسجد النبوى وحجرة الرسول به.

لذلك انتشرت فى الثقافة الإسلامية مقولة مالك: من قال لا أعلم فقد أفتى. ورفض مالك مرتين أو ثلاثًا أن يطبق الخليفة فقهه فى كل ربوع الدولة الإسلامية، وقال لكل بلد ظروفه وفقهاؤه.

ليس فى الإسلام ولا تراث المسلمين هيراركية دينية ولا كهنوت تقوم عليها دولة ثيوقراطية، بل هناك الشورى التى تمنع الاستبداد فى

كل أوجه الحياة، إذا عُمل بها، وقد قالت عائشة والصحابة عن الرسول: لم يكن هناك من يستشير الناس أكثر منه.

٦- التخويف من تطبيق حدود الشريعة

أكثر ما يخاف منه بعض المسلمين هو قطع أيادى السارقين.

يرد من يطالب بتطبيق الشريعة على ذلك قائلًا:

إن الشريعة نظام متكامل لحياة المسلم، وحدودها ـ بالمعنى الحرفى والحقيقى ـ هى الإطار الخارجى لها، والذى يقوم ـ بالتدريج ـ مع ـ إن لم يكن بعد ـ قيام الجوهر، أى المجتمع الذى يؤمن بالعقيدة ويستوعبها فيتبع التكاليف، ويأتمر بالأوامر، وينتهى بالنواهى، ثم يتدرج المجتمع فى تطبيق الحدود[٨٦]. وإذا ناقشنا موضوع السرقة، فيجب مناقشة موضوع المال بأسره فى الشريعة:

المال هو مال الله، واستخلف الناس عليه ليرى ماذا هم فاعلون، فهو يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر، أى يضيق، عمن يشاء.

تحمى الشريعة أموال الناس، أى الملكية الخاصة، ولكن فى نفس الوقت تفرض على الأغنياء دفع زكاة أموالهم، وتحث على دفع ما هو أزيد

(٨٦) لم يكن ذلك منهج الإسلام فى عصر التنزيل فقط ـ كما جاء فى التدرج فى تحريم الخمر، والتدرج فى تكليف المسلمين الجدد بالصلاة ثم الزكاة كما بينت أوامر النبى لمبعوثه الذى أرسله لليمن ـ بل إن الخليفة عمر بن عبد العزيز تدرج فى أواسط عصر الدولة الأموية فى إحياء السنة وإماتة البدع السيئة، وعندما ألح ابنه فى التطبيق الفورى وإن أدى ذلك إلى قتله، أجابه: يا بنى إن بادأت الناس بما تقول أحوجونى إلى السيف، ولا خير فى خير لا يحيا إلا بالسيف ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير، الجزء الرابع ص٣٣٠، ٣٣١ طبعة دار الكتب العلمية ـ ١٤٠٧هـ.

من الزكاة، وجعلت كثيرًا من الكفارات بدفع المال. وتحث على كسب المال الحلال، وعلى العمل الجاد لتحقيق مطالب العائلة وترك الورثة أغنياء بدلًا من أن يسألوا الناس. وتنهى عن الربا، وتحث المسلمين على القرض الحسن، وإمهال المُعسر، وإن أمكن التجاوز عن دينه.

وبالطبع تنهى عن الغش والخداع فى كل أنواع البيع والشراء، وتحث على إبرام العقود التى تكفل شفافية البيع والشراء، والتى تمنع الخلافات المستقبلية بين البائع والمشترى ـ أو الصانع والآمر بالصناعة، أو الآمر بالبناء أو ما إلى ذلك ـ بأن يتناول العقد التفاصيل بما يسد الذرائع أمام الاختلاف، ويحفظ حقوق المتعاقدين.

وتنظم الشريعة التشارك فى الزراعة والتجارة وغير ذلك حتى لا يظلم طرف الآخر.

وأمر الحديث النبوى بدفع أجر العامل قبل أن يجف عرقه.

وألزمت الزوج بالإنفاق على زوجته حتى لو كانت ثرية ولا يحق له من مالها شىء إلا برضاها، تطوعًا.

ووضعت نظامًا للمواريث يوزع التركة حسب مسئوليات الوارثين حتى يتمكن كل منهم من القيام بها.

ونهى نبى الرحمة أن يبات أحد شبعان وجاره جائع، وأعلن أن الدولة مسئولة عن سداد ديون الميت الفقير[٨٧]، وهذا بالطبع يؤكد مسئولية

(٨٧) أفتى ابن حزم بأنه إذا مات أحد من الجوع، لزم أهل قريته أن يدفعوا ديته.

الدولة عن ديون الفقير الحى، ومن ثم مسئوليتها عن تأمين العيش الكريم للفقراء، ولمحاربة الفقر، وقال الإمام على: لو كان الفقر رجلًا لقتلته! وهذا أيضًا يفتح الباب على مصراعيه لتأكيد مسئولية الدولة عن تعليم وتأهيل أفرادها للعمل الذى هو المصدر الرئيسى للكسب ومحاربة الفقر، ومسئوليتها الرئيسية أن يعيشوا حياة تكفل لهم فيها الضروريات الأساسية لكرامة الإنسان، والتى تتغير طبقًا للزمان والمكان، وهى فى ذلك تقوم بدورها المحورى والأساسى فى تحقيق الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٠].

ولقد بين رسول الرحمة أن الناس شركاء فى الضروريات التى كانت فى وقته: الماء، والكلأ، والنار.

فهم الآن شركاء فى ضروريات العصر، بما قد يضم البترول، والمعادن وغير ذلك حسبما يرى العلماء.

ولعنت الشريعة الاحتكار فى التجارة، وهذا بالطبع يعنى منع احتكار المعلومات، ومنع احتكار المال، أو احتكار الحكم فى عائلة أو حزب.

ومن حِكم الإمام على: ما مُتع غنى إلا بما حُرم منه الفقير.

وأمرت بالشورى.

وعرفنا كيف حدد الصحابة مرتب أول خليفة لرسول الله: مرتب مثل أواسط المسلمين، حدده عمر ومن معه لأبى بكر.

وعرفنا كذلك كيف يسأل المواطنون رئيسهم عن ثوبه من أين أتى به؟ وكيف ترد امرأه قرار الرئيس على مسمع ومرأى الشعب، فيذعن فوريًّا لقولها.

وعرفنا قول عمر: لو عثرت بغلة في العراق لسُئلت عنها يا عمر[88]. في مثل هذا المجتمع، ألا يستحق السارق أقسى عقاب؟

وهناك بعض الأمثلة التى كافأت فيها شريعة الرحمة المذنب الفقير، أو حتى السارق الفقير، نذكر منها:

واقع رجل زوجته فى نهار رمضان، ثم جاء للنبى يخبره بما فعله، وكيف يكفر عنه، فسأله النبى ألديك ما تتصدق به؟ فأجابه بالنفى. فسأله النبى أن يمكث معه قليلًا حتى تجيئه صدقة. فلما جاء أحد المسلمين بصدقته، قال النبى للرجل خذها وتصدق بها على أحد الفقراء، فأجابه الرجل: والله يا رسول الله ليس هنا من هو أفقر منى! فتبسم النبى وقال له: خذها أنت وأهلك.

وأيام عمر، سرق البعض ناقة من يعملون لديه، فذهب إلى عمر يشكوهم، فأحضرهم عمر، فلما علم منهم بخل الرجل عليهم وسوء حالهم، فإذا به يعاقب صاحب العمل الظالم ويبرئ الفقراء المظلومين من السرقة.

وإذا كانت جريمة القتل هى من أبشع جرائم الإنسانية، ولا يعانى أحد أكثر من أن يُقتل أبوه أو أخوه أو ابنه ظلمًا، فمع هذا شرع الإسلام

---

(٨٨) مات حوالى ١٠٠٠ مصرى غرقًا، ولم تتحرك الدولة لإنقاذهم إلا بعد أكثر من عشر ساعات، بينما كان الرئيس السابق يستجم!

العفو لأصحاب الدم إذا أرادوا، فلهم خيارات ثلاثة، مطالبة الحكومة بالقصاص، أو بطلب الدية من القاتل، أو العفو عن القاتل. فمن هنا يمكن للبعض أن يُجادل بأنه يمكن تطبيق نفس المبدأ على السرقة، فليست السرقة بأفظع من القتل، وليس العفو عن السرقة بأكبر من العفو عن القتل.

وتظهر آفاق رحمة الشريعة فيما يعرف بآية المحاربة في سورة المائدة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[٣٣، ٣٤].

نقلت تفاسير القرطبى وابن كثير والرازى والألوسى وسيد قطب أن من:

* يحارب الله ورسوله.

* ويسعى فى الإرض فسادًا بسرقة وقتل وما إلى ذلك.

ثم يجىء تائبًا للإمام، يحصل على العفو العام!

وذكرت التفاسير المذكورة ثلاث وقائع منفردة جاء فى كل منها واحد من أولئك المجرمين العتاة المحاربين لله ورسوله، والمفسدين فى الأرض إلى: على بن أبى طالب، وإلى أبى موسى الأشعرى، وإلى أبى هريرة، فحصل كل منهم على العفو العام عن جرائمه.

فالله يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يُشرك به.

ومن زاوية أخرى، قد يجادل البعض بآية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فلا أحد يقول بأن علينا الآن إعداد رباط الخيل لردع العدو وقتاله، ولكن علينا إعداد وسائل القوة الفعالة اليوم، فهل يمكن تطبيق عقاب رادع بوسائل اليوم بدلًا من قطع اليد[٨٩]؟.

ولكن:

ألا نخشى أن يستغل هذه الرحمة الواسعة بعض الأشقياء الذين لا يريدون توبة ولا صلاحًا؟.

فلنعتبر بجيش البلطجية الذى ربته الحكومة السابقة من أصحاب سوابق السرقات وما إليها حتى أصبحوا جيشًا من المجرمين، على استعداد لقتل الجماهير فى مقابل بعض مئات أو حتى عشرات من الجنيهات.

ألم يكن قطع أيادى بعض منهم يردع الآخرين، ويقطع طريق تفاقم شرهم من سرقة إلى قتل، وتفاقم أعدادهم من بضع مئات أو آلاف إلى عشرات أو مئات الآلاف؟.

ألم يتبين لنا أن السجن أصبح لا يردع كثيرًا من المجرمين، بل يزيدهم إجرامًا؟.

---

(٨٩) مع العلم بأن السجن أصبح لا يردع عن السرقة، ولا عن عودة السجين لها، وطبقًا لأقوال لواء شرطة السجون خ.م.: يُقدم للمحاكمة سنويًا بتهمة السرقة حوالى ١٥,٠٠٠ متهم، تثبت التهم على حوالى عشرة آلاف، يمضون العقوبة فى السجن، فيتبادلون خبرات السرقة، ويخرجون ثم يعودون لها ثانيًا وثالثًا، وأنه قبل الثورة، قارب عدد المسجونين بتهمة السرقة حوالى عشرين ألفًا، يكلف كل منهم الدولة أكثر من عشرين ألف جنيه سنويًا، ويخرج كثير منهم من السجون أكثر جرأة واحترافًا للسرقة.

٧- اعتراضات أخرى

هناك بعض الاعتراضات الأخرى من قبيل: إننا لا نريد أن ندنس الدين بالسياسة، أو أن مصادر الدين (القرآن والسنة) محدودة وحوادث العالم غير محدودة، فكيف يحكم المحدود غير المحدود؟.

يرد من يدعو للمشروع الحضارى الإسلامى على الاعتراض الأول بأنه ليس هناك ما يلزم بأن تكون السياسة دنسة، بل هى نشاط إنسانى رئيسى ومحورى، يؤثر ويتأثر بكل أوجه النشاط الإنسانى الأخرى، وشرع الله عند المسلمين هو ما جاء لينظم حياتهم كلها، وفى مقدمتها الحياة السياسية[٩٠].

وهل كان عبد الله النديم وعمر مكرم وأحمد عرابى ومصطفى كامل وسعد زغلول والأسقف سرجيوس ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وفخرى عبد النور وإبراهيم فرج ومحمد نجيب وممتاز نصار وحلمى مراد أدناسًا؟ وهل البرادعى والعوا وحمدين صباحى وحازم أبو إسماعيل وجمال زهران وچورچ إسحاق وعبد الجليل مصطفى وأبو الغار وأحمد بهاء شعبان وسمير مرقص أدناس؟

أما الاعتراض الثانى، فيردون عليه قائلين: خالق الكون أدرى بما حدث وما يحدث وما سيحدث، وهو أدرى بما يُصلح الإنسان حتى يوم الحساب

---

(٩٠) قال بلير فى الكتاب السابق ذكره: السياسة يجب أن تكون نشاطًا أخلاقيًا، نحاول غرس توافق قيم الاشتراكية الديمقراطية وقيم المسيحية فى عقول الشعب ـ صفحة ٣٩، رأى بلير السياسة وسيلة للأخلاق ـ صفحة ١٥٨، بينما قال بوش فى زيارته الشهيرة لرئاسة الناتو فى أوروبا: قيمنا واحدة، وأخلاقنا واحدة، فإذا اجتمعنا فلن تستطيع قوة على الأرض أن تواجهنا. وغنى عن القول أنه عندما يتكلم بلير وبوش عن القيم والأخلاق فهما يقصدان الأخلاق المسيحية.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وهو أدرى بكيف يجعل للمسلم - فى كل مكان وزمان - هداية لشرعه من نصوص القرآن، ومن سنة خاتم النبيين، بما حباه من عقل ومدارك وفطرة، يجتهد فى استخدامها بكل الوسائل والسبل، من قياس لاستنباط لسعى وراء المصالح، ولتحقيق المقاصد الرئيسية للشرع، ويطمئن المسلم بآية ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وحديث الرسول: «اسمعوا وأطيعوا ما استطعتم»، فيحمل أمانة التكليف بالخلافة على الأرض دائمًا أبدًا، وعينه على الآية السارية إلى يوم يرث الله الأرض وما عليها: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن هدف الشريعة هو تهذيب النفس الإنسانية وتحريرها من أهواء الطمع والجشع والشح وأثرة الذات، من شهوات الدنيا من مال وجنس وسلطة وشهرة وكِبر، وتطهيرها من الحسد والحقد، ويُجمل كل ذلك القاعدة الرئيسية فى الأديان الإبراهيمية الثلاثة: حب لأخيك ما تحب لنفسك.

ويردون أيضًا: لن يتوقف حجاج من يريد إخراج الله وشرعه من حياة المسلمين، ولن يجد غضاضة فى أن ينادى بإخراج خالق الإنسان، وخالق الحياة كلها، خاصة وعامة، من حياة الإنسان العامة حتى لا يفسدها!.

ولقد جاء فى الكتاب المقدس: لا جديد تحت الشمس.

بينما جاء فى القرآن ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

فما زالت بعض القوى الغربية تريد إخراج الإسلام من حياة المسلمين، ليسهل لها تشكيلهم حسب مصالحها المتنوعة.

آفاق الشريعة
فى مصر بعد الثورة

وضَّح كثير من العلماء والفقهاء أن الشريعة الإسلامية هى شريعة خلافة الله على الأرض:

عبادة الله بإعمار الأرض بقيم الحق والعدل وبأداء الأمانات إلى أهلها، وبالإخاء والمساواة بين البشر «فكلهم لآدم وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم، ولا فضل لأحد بسبب لونه أو عرقه أو جنسه ـ فليس هناك شعب مختار وشعوب مستبعدة ـ»، وبالتكافل والمودة والرحمة، «فلن يكون مؤمنًا من بات شبعان وجاره جائع، ولا من لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وبالوفاء بالمواثيق والعهود والوعود، ونشر السلام «اقرأوا السلام على من تعرفون ومن لا تعرفون»، وبالسعى الجاد لاكتساب العلوم والمعارف ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، بالعمل الجاد﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا﴾ وبالعمل لخير البشر «أحبكم لله أنفعكم للناس»، وبالعمل لخير العائلة «خيركم خيركم لأهله»، وبالرفق حتى بالحيوان ـ فقد دخل الجنة رجل سقى كلبًا عطشان، ودخلت النار امراة حبست قطة ـ وبالإحسان، كما أحسن الله إلينا.

فهل هناك وظيفة للإنسان على الأرض أفضل من هذا؟

جمعت الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ من سورة الأنعام، والآيات ٢٣ ـ ٣٩ من سورة الإسراء روح ما جاءت به الوصايا العشر فى التوراة، مع زيادة

فى الفروع والتفاصيل، وقال المسيح «ما جئت لأنقض الناموس» فهو على شريعة التوراة إلا بعض التخفيف عنها، وقال حكمته الخالدة: ماذا يربح الإنسان لو كسب العالم وخسر نفسه؟ فجماع الشرائع الإلهية فى القاعدة الذهبية: حب لأخيك ما تحب لنفسك، والقاعدة الضرورية: لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

ففى ظل هذه الشريعة، تزدهر الحضارة الإنسانية كما ازدهرت، على سبيل المثال، فى الأندلس، وأبدع المسلمون والمسيحيون واليهود.

وإذا كان ما سبق كلامًا جميلًا، ربما يجتمع عليه كثير من البشر، إلا أنه كلام، يحتاج عملًا شاقًا مستمرًا، بوعى وتخطيط ومثابرة لإنجاز بعضه... وتلك هى قصص جهاد الأنبياء مع مجتمعاتهم، وقصة الصراع بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر كما يقول چورچ بوش، والمستمرة حتى يوم الدين.

إقامة الحق والعدل يحتاج إلى قوة... والقوة تحتاج إلى علم وعمل ومال وتكنولوچيا، وقبل ذلك وخلاله وبعده، تحتاج إلى إيمان وعزيمة.

ولا ينقص المصريون أى من ذلك.

وإذا كانت المسيحية السياسية فى أوروبا القرن العشرين نجحت فى تنمية ألمانيا وإيطاليا وغيرهما، وفى تهذيب اقتصاديات الرأسمالية، وفى إنشاء الاتحاد الأوروبى ـ كما مر علينا من قبل فى مقتطفاتنا من موسوعة كمبريدچ للتاريخ: الفكر السياسى فى القرن العشرين ـ كذلك

نجح - ولو جزئيًا - لاهوت التحرر فى أمريكا الجنوبية فى تحرير شعوبها من الظلم والاستبداد والفقر والجهل، فلماذا لا ينجح الإسلا م السياسى فى تحقيق آفاق الشريعة؟.

يقول أصحاب المشروع الإسلامى:

* *تبدأ البداية والخطوة الأولى بالتحرير الفكرى، ذلك هو التوحيد الخالص والمعنى الخالص لشهادة لا إله إلا الله: التحرر من خضوع التبعية، الخضوع الثقافى والمالى والاقتصادى والسياسى للبشر.*

ما الذى يجعلنا نقبل بفرض قانون ناپليون - الذى هو خليط من القوانين الرومانية، وقانون القبائل الجيرمانية، وقوانين الكنيسة، والقانون الطبيعى الذى نادى به بعض الربوبيين [91] أو من يضعون الطبيعة مقام الله - بدلًا من الشريعة الإسلامية؟ وما الذى يجعلنا الآن نرضخ للضغوط الغربية - وبخاصة الأمريكية - لإخراج الشرع الإسلامى من حياتنا [92]؟ وأن تصبح حياتنا نسخة شائهة زائفة فاشلة من الحياة الأمريكية أو الغربية؟ وما الذى يجعلنا نرضخ لأن يُملى علينا صندوق النقد والبنك الدوليين سياساتنا المالية والاقتصادية؟ وأن نرضخ لأن تقضى مؤسسات دولية فى قضايا تنشأ على أرضنا مع

---

(٩١) انظر صفحة: ١١١.

(٩٢) طالعتنا جريدة المصرى اليوم فى ٢٤/ ٦/ ٢٠١١ بالعنوان الآتى: «مسيحيو الجزائر يطالبون بتعديل المادة الثانية من الدستور الخاصة بدين الدولة - رئيس الكنيسة البروتستانتية: المسيحيون يشعرون بأنهم مواطنون درجة ثانية»، فهل هناك توارد خواطر؟! الطريف فى الأمر أن عدد المسيحيين فى الجزائر أقل من ١٪ طبقًا لما جاء فى الجريدة، وهناك تقديرات بأقل من ذلك الواحد بالمائة بكثير!، وهم نتاج حركات التبشير المعاصرة.

شركات أو مؤسسات أجنبية جاءت لمصر سعيًا وراء مصالحها، وأن تقوم بيننا مؤسسات تمولها أوروبا وأمريكا لتجعل ما تسميه حقوق الإنسان قانونًا فوق كل قوانيننا، بما فيها الشريعة؟ ومما يستلفت النظر فى هذا الأمر، أن كثيرًا من تلك المنظمات التى أنشأها الغرب، وبالذات الولايات المتحدة، تضم رجال قانون مصريين لامعين ونجباء، والمفترض أنهم يعلمون تمامًا سياسة الولايات المتحدة - داخليًا وخارجيًا - والتى لا تأبه لأى قوانين أو قرارات، سواء صادرة من الأمم المتحدة، أو المحكمة الجنائية الدولية (I CC) التى ترفض الولايات المتحدة الانضمام إليها، أو غير ذلك، ويعلمون تمام المعرفة أن المسئولين فى حكومات الولايات المتحدة المتعاقبة لم يتوقفوا عن الإعلان بأنهم يسعون للحصول على التأييد الدولى، ولكنهم على أتم الاستعداد للعمل منفردين دون الحصول عليه، بل وبخلافه إذا اقتضى الأمر. ومن المستبعد جدًا أن تلك النخبة المتميزة من القانونيين والنشطاء المصريين الذين يعملون فى تلك المنظمات لم يقرأوا - على سبيل المثال - التعديل الحديث فى قانون ولاية أريزونا - التى لم تصبح ولاية إلا فى عام ١٩١٢ ، أى منذ أقل من مائة عام، والتى يبلغ تعداد سكانها خمسة ملايين فقط - والذى يرفض تطبيق أى قوانين صادرة من: الأمم المتحدة وأى وكالة تابعة لها، والاتحاد الأوروبى وأى وكالة تابعة له، والمحكمة الدولية، والصندوق والبنك الدوليين، ومنظمة الأوبك، والاشتراكية الدولية!، أو ما كتبه جنجريتش رئيس مجلس الشيوخ الأسبق، والذى يحتمل أن يرشح نفسه للرئاسة عن الحزب الجمهورى: إن الأمريكيين أصحاب القيم الأمريكية يرون أن على الولايات المتحدة أن تضع مصالحها قبل التعاون مع

المنظمات الدولية (نسبة القائلين بذلك ٧٣٪) - كتاب «Winning The Future» من منشورات .Regency Publishing, Inc سنة ٢٠٠٥، تحت عنوان Test Yourself قبل مقدمة الكتاب[٩٣].

* ثم علينا اعتبار قضية اكتساب العلوم والمعارف والتكنولوچيا والبحث العلمى قضية مصيرية، وهذا هو جزء من العلم والعمل اللذين تأمرنا الشريعة بهما.

* وبالتوازى مع ما سبق، يجب تحقيق أكبر قدر من المساواة بالعمل الجاد الأمين على رفع المستوى التعليمى والصحى والمادى[٩٤] للقاعدة الكبرى من المواطنين، والذين بدورهم يشكلون قوة شرائية تمثل قاعدة كافية لقيام مختلف أنواع المنتجات والخدمات، وهؤلاء المواطنون هم المتسابقون باسم مصر فى التنافس العالمى على الدنيا.

---

(٩٣) وذلك برغم أنه فى سجلات التاريخ والحاضر، صدرت مئات الأحكام والتقارير والتوصيات والقوانين والقرارات الظالمة من مؤسسات دولية يهيمن عليها الغرب، وآخرها تقرير للأمم المتحدة يبرئ العدوان الإرهابى لإسرائيل على سفينة تركية فى المياه الدولية تحمل معونات غذائية وصحية لغزة - التى تحاصرها إسرائيل - فى جريمة على مرأى ومسمع من كل العالم، فإذا أصحاب حقوق الإنسان يقولون إن من حق «الذين اعتلوا [هكذا...] السفينة أن يدافعوا عن أنفسهم»، وقبل ذلك شهادة أوباما المشهورة للرئيس المخلوع - الذى تعلم أمريكا تمام العلم استبداده وفساده وفشله - حين قال عنه: قوة خير للمنطقة!.
ثم المحاولات المستميتة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى لمنع تقدم فلسطين للأمم المتحدة بطلب الاعتراف بها كدولة مستقلة، ويهددون بإجراءات انتقامية ضد فلسطين لو لجأت إلى الأمم المتحدة!.

(٩٤) على سبيل المثال: أنفق الأهالى فى العشر سنوات الماضية ما يقارب ميزانية الدولة فى التعليم، بل وفى بعض السنوات أنفقوا أكثر! فإذا أحسنت الدولة - بالاشتراك مع القطاع الخاص والأهالى - إدارة العملية التعليمية لوفرت ذلك، ولذهب ذلك الإنفاق لبند المدخرات والاستثمار.

* وبناء المؤسسات التعليمية الناجحة يمكن أن يجذب تلاميذ وطلاب من مختلف البلاد العربية والأفريقية والإسلامية، فمنذ بضع سنوات، احتلت برامج تعليم اللغة الإنجليزية المركز الخامس أو السادس فى صادرات بريطانيا، فيمكن لبرامج مثيلة فى اللغة العربية، وفى العلوم الشرعية أن تشكل حجمًا كبيرًا فى الصادرات المصرية.

ولا ينبغى النظر إلى إصلاح التعليم باعتباره وسيلة جذب للطلاب من خارج مصر فقط، ولكن باعتباره حجر الزاوية فى أى مشروع نهضوى، خاصة وأن فساد المنظومة التعليمية قد وصل حدًا يوحى بالتآمر وسوء القصد، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال تفعيل دور المدرسة والجامعة وتحسين أوضاع هئيات التدريس فيها، مما سيقضى تلقائيًا على ظاهرة الدروس الخصوصية، وينعكس إيجابيًا بشكل مباشر على دخل الأسرة المصرية.

* وما يُقال فى التعليم يقال فى المجال الصحى، فالأطباء المصريون على درجة عليا من الكفاءة، ويحتاجون لتخطيط شامل جاد دؤوب لتحديث وتنظيم عمل المؤسسات الصحية، التى يمكنها أيضًا اجتذاب المرضى والدارسين من العالم العربى وإفريقيا.

أيضا لا ينبغى النظر إلى المنظومة الصحية باعتبارها بابا للسياحة العلاجية فقط، بل باعتبارها من الأولويات المطلقة (مع الغذاء) التى ينبغى أن يتوجه إليها الاهتمام، خاصة بعد أن وصلت بعض الأمراض كسرطان الكبد والفشل الكلوى إلى أعلى المعدلات العالمية. ونرى أن

ذلك لن يحتاج إلى زيادة كبيرة فى ميزانية الصحة بقدر ما يحتاج إلى ترشيد الإنفاق فى بنود يتم انتهابها بشكل كبير، مثل الإنشاءات والعلاج على نفقة الدولة، وشراء أجهزة متقدمة تُكَهَّن فى المخازن قبل استخدامها.

* أمرتنا الشريعة بالعدل، وأساسه العدل الاجتماعى، وأمرتنا بالتكافل، فكيف تنحط حكوماتنا المتعاقبة إلى الظلم الصارخ فى دخول العاملين بها؟ والظلم الصارخ فى تمييز بضعة ممن يُسمون رجال الأعمال ومحاباتهم بالقروض والتسهيلات، والأراضى شبه المجانية، والإعفاءات الضريبية وغير ذلك على حساب بقية الشعب؟ لقد فعلت حكوماتنا ذلك لأن جمال مبارك أراد صناعة نسخة متطرفة مُشوهة من رأسمالية اليمين الأمريكى - اليمين السياسى واليمين المسيحى، والتى رفضها الشعب الأمريكى حين طالب بالتغيير، وحين جاء بأوباما - طلبًا لرضاء واشنطون عليه وعلى مشروع التوريث.

إن كارثة الدخول فى مصر عامل رئيسى فى تدهور حال الشعب المصرى، ولولا متانة نسيجه ذى البضعة آلاف سنة لتمزق شر تمزيق.

هناك عاملون بالدولة يتقاضون أقل من ثلاثمائة جنيه شهريًّا، وهناك حوالى ٤٠,٠٠٠ مستشار، يكلفون الدولة ١٢ - ١٥ مليار جنيه فى السنة، أى بمتوسط أعلى من ٢٥٠٠٠ جنيه شهريًّا، منهم - ربما بضعة آلاف - يتقاضون أكثر من مائة ألف، وبعضهم أكثر من مليون شهريًّا، أى أكثر من أوباما[٩٥].

---

(٩٥) ومن العجيب أن يصرح محافظ البنك المركزى بأنه لن تكون هناك حدود عليا للمرتبات فى قطاع البنوك، ويؤيده فى ذلك أحد أبرز مساعديه، ويصرح أحد رجال الأعمال البارزين فى التطبيع أن الحدود الدنيا للمرتبات هبل إعلامى!.
ماذا يمكن أن نقول عن موظف تأتمنه الدولة والشعب على أموال المصريين، يرفض أن يكون دخله ٣٠,٠٠٠ جنيه شهريًّا، فى الوقت الذى يتقاضى فيه ملايين الموظفين فى الدولة راتبًا أقل من ١٠٠٠ جنيه شهريًّا؟ بالإضافة لوجود ملايين العاطلين! =

* وأيضًا بالتوازى مع ما سبق، يجب التخطيط لنهضة صناعية زراعية خدمية تكنولوچية، مع قيام الدولة بواجبها الرئيسى فى حماية أسس استقلالها، وعلى المسئولين القتال بكل أساليبه وأشكاله لحماية ذلك، ولهم العبرة فيما فعلته وتفعله الدول المتقدمة فى حماية منتجاتها الإستراتيچية ـ بكل السبل، بدءًا بالحماية الجمركية بمختلف أنواعها، إلى الدعم بكافة أنواعه: مالى، بحوث وتكنولوچيا، وغير ذلك... ولا ننسى أن أوروپا احتلت ثلثى العالم لمدة قرنين أو ثلاثة لبناء اقتصادها، وما زال الغرب يفرض على العالم القوانين التى تناسبه، فلا يمكن أن نستمر فى سياسات تدور بنا فى حلقات التبعية والاعتماد على من يعمل بكل وسيلة ـ مشروعة وغير مشروعة ـ لمصالحه ولاستمرار تفوقه وسيادته.

* وإذا كانت صناعة وتجارة السلاح والأدوية فى مقدمة صناعات وتجارة العالم، فلماذا لا نخطو الخطوة الأولى فيها؟ ولقد خطونا فعلًا تلك الخطوة الأولى منذ عدة عقود بنجاح، ثم توقفنا.

إسرائيل ذات البضعة ملايين مواطن تنتج السلاح، وكذلك الصين التى كانت خلف مصر حتى خمسينيات القرن الماضى، وذات المليار وثلث المليار مواطن، تنتج السلاح، وإيران التى تحاصرها أمريكا والغرب منذ ثلاثين سنة تنتج السلاح.

= بل إنه يرفض الكشف عن المرتبات الكبرى فى البنوك! مع العلم بأن هناك عشرات الآلاف فى مصر أكثر إخلاصًا لبلدهم، وأكثر كفاءة، من أولئك الثلاثة.

وتظهر الأقوال السابقة وجهًا من النيوليبرالية يجسد الصلف المغرور والأنانية عديمة الإحساس بالغير، ونتيجته أن حصل ١٪ من الأمريكيين فى عام ٢٠١٠ على ربع إجمالى الدخل القومى وكدسوا ٤٠٪ من ثروات أمريكا، ونتيجته فى مصر فساد وظلم اجتماعى مماثل ألقى بجمال مبارك وعصبته فى سجن طرة، وبقيتهم فى الطريق إليه.

فلماذا لا تبدأ مصر فى ذلك؟

مع العلم بأن تقدم صناعات كثيرة فى أمريكا، مثل الحواسب والنت والاتصالات وصناعات الفضاء، والأدوية وغيرها، يرجع للأبحاث التى يقودها وينفق عليها البنتاجون بسخاء، ثم تستفيد منها الصناعة التكنولوچية المدنية.

وبالطبع يمكن لمصر التخطيط والتنسيق فى ذلك مع كثير من البلاد العربية والأفريقية والإسلامية، وبلاد أمريكا الجنوبية والهند والصين وروسيا، وغيرها.

وما يقال عن السلاح يُقال عن الدواء.

* وعلى الدولة أن تعيد النظر فى عدوها؟ أهو الشعب؟! كيف يكون عدد العاملين بوزارة الداخلية، وقوات الأمن المركزى وما إلى ذلك أكبر من عدد العاملين بوزارة الدفاع وعدد قوات الدفاع؟.

على الدولة أن تخفض من ميزانية وأعداد العاملين فى وزارة الداخلية لحساب وزارة الدفاع.

ومن الذى يمثل الخطر الرئيسى على مصر؟ حماس وإيران أم إسرائيل؟. وكيف تقف الحكومة المصرية فى خندق إسرائيل وأمريكا فى تنفيذ مشروع فصل جنوب السودان وإقامة دولة مسيحية فيه؟ [٩٦]

---

(٩٦) لماذا حضر چون كيرى مرشح الرئاسة السابق، وكارتر الرئيس الأمريكى السابق، وغيرهما من الشخصيات الهامة فى أمريكا قداس الاحتفال بدولة جنوب السودان؟

قال رمزى كلارك - النائب العام فى حكومة چون كنيدى - إن واشنطون مقدرة =

* وفى مجال الطاقة، لماذا لا تبدأ مصر مشروعات طموحة لاستغلال الطاقة الشمسية؟ ولماذا لا تدخل بجدية فى مشروع الطاقة النووية؟.

* وفى مجالات السياحة والتجارة والخدمات، لماذا لا تصبح بورسعيد والإسماعيلية والسويس ودمياط والإسكندرية مراكز جذب مثل دبى وسنغافورة وكوالالومبور؟.

فلنعمل على أن يأتى سائحون عرب إلى مصر بقدر ما يذهبون إلى ماليزيا! ولماذا نرفض تسهيل دخول الإندونيسين والماليزيين والأتراك إلى مصر بدون الحاجة لتأشيرات، فى مقابل أن يذهب المصريون لتركيا بدون تأشيرة؟ مع العلم بأن المصريين يدخلون إندونيسيا وماليزيا بدون تأشيرة.

وكيف يدخل الإسرائيليون سيناء بدون تأشيرة حتى اليوم؟.

ولماذا نغلق الباب فى وجه السياحة الإيرانية لمصر، والتى يؤكد خبراؤها - على الجانبين - أنها لن تقل فى سنتها الأولى عن نصف مليون سائح ينفقون ما لا يقل عن مليار دولار، ويمكن أن تزيد إلى أكثر من مليون ينفقون أكثر من ٢ مليار دولار سنويًا؟.

ولماذا نغلق الباب فى وجه الاستثمارات الإيرانية فى مجالات السيارات والبتروكيماويات والصناعات الغذائية؟[٩٧].

= لمبارك دوره فى كبح الإسلام، وإن أمريكا تعمل على فصل جنوب السودان منذ أكثر من عشرين عامًا - قال ذلك فى حفل عشاء أقيم له منذ بضع سنوات فى فندق هيلتون رمسيس القاهرة.

واقرأ ما جاء فى چويش تليجراف ٨/ ٧/ ٢٠٠٤: السودان أصبح قضية يهودية إسرائيلية، قضية دارفور قضية يهودية إسرائيلية!.

(٩٧) تنتج إيران ما يقرب من مليون سيارة سنويًا، بنسبة تصنيع تزيد على ٨٠٪، =

* وكما ساهمت الأحزاب المسيحية فى إنشاء الاتحاد الأوروبى، لماذا لا يُساهم الإسلام السياسى فى إنشاء الاتحاد العربى، ثم الاتحاد الإسلامى؟.

* وعلينا استبدال شعار تجفيف منابع الإسلام بتجفيف منابع التبعية والفساد، والعمل على تحقيق الشفافية الكاملة فى ميزانية الدولة.

فقد تحدث المسئولون، ومنهم رئيس الجهاز المركزى للمحاسبات، عن الصناديق الموازية، والتى بلغت - طبقاً لما أمكن حصره - بضعة آلاف صندوق، وفى تقدير خبراء مالية مثل عبد الخالق فاروق وعبد الحافظ الصاوى راكمت ما يقارب تريليون جنيه فى العشرين سنة الماضية، أى ما يقارب مائتى مليار دولار، ضاع ٦٠٪ منها فسادًا.

* كذلك علينا تحويل مراقبة أمن الدولة للناشطين السياسيين إلى مراقبة الناشطين فى جلب المخدارت، والتى تستنزف أكثر من ٢٠ مليار جنيه سنويًّا من جيوب المصرين، بالإضافة لما تهدمه من الصحة البدنية والنفسية للمدمنين، وما يتكلفه علاجهم، وآثار التعاطى الضارة على المحيطين بهم.

وعلى المؤسسات الدينية، الحكومية والأهلية، قيامها بالدور المطلوب منها فى تحريم المخدرات، مثل تحريم الخمر.

* ويمكننا الاستفادة من أموال الزكاة بشكل جماعى مؤسسى يُساهم

= وعرض رئيس الغرف الصناعية والتجارة الإيرانية استثمار إيران فيما سبق ذكره، وذلك للوفد الشعبى المصرى الذى زار إيران فى مطلع العام الحالى.

فى الإنتاج أكثر مما يُساهم فى إشباع الاستهلاك، فإذا كان إجمالى الناتج فى مصر حوالى تريليون جنيه، وقدَّرنا ٥ ,٢٪ على نصفه فقط، لأُتيح لنا ٥ ,١٢ مليار جنيه سنويًّا، فإذا نجحت الدولة - بالاشتراك مع المؤسسات الوطنية - فى كسب ثقة المزكين لاستطاعت توفير استثمار معتبر بتكلفة صفرية[٩٨]، وما يُقال عن الزكاة، يقال عن الأوقاف الإسلامية التى أممتها الدولة، ولا أحد يعرف ماذا تفعل بها.

وجدير بالذكر أن كثيرًا من جامعات ومستشفيات أمريكا الناجحة والمتميزة قامت على الأوقاف.

وعلى الدولة أن تكف عن الاقتراض - الذى كان من ذرائع احتلال إنجلترا لمصر ثمانية عقود، والذى يُكَرِّس التبعية التى يريدها بعض المتفعين والمستغربين - وتعمل جدًّيا على استرداد أموال مصر المنهوبة داخليًّا وخارجيًّا.

وقد عرض الخبراء عدة خطوات أساسية توفر للدولة ما يكفيها:

رفع أسعار بيع الغاز إلى الأسعار العالمية - إنهاء دعم الصناعات التى تحقق أرباحًا غير معتادة، مثل صناعات الأسمنت والحديد والسيراميك بالطاقة الرخيصة - عمل ضرائب تصاعدية على تلك الصناعات، وعلى شركات المحمول بأرباحها المليارية، ومثيلاتها - استرداد القروض التى بالمليارات من أصحاب الحظوة ممن يُسمون رجال الأعمال من عصبة جمال مبارك ومن

---

(٩٨) لو رجعنا لميزانيات الدولة، لوجدنا أن ما يقارب نصفها - ٥٠٪ - يذهب لسداد القروض وفوائدها.

حوله ـ عمل ضرائب على أرباح البورصة كما يحدث فى معظم دول العالم ـ استعادة سيطرة الدولة على الصناديق الموازية وتطهيرها من الفساد لتخدم الشعب ـ ضبط الحد الأعلى للدخول، ويكفى فى ذلك ثلاثين ألف جنيه شهريًّا للعباقرة ذوى الإنجاز، ومن لا يقبل فليترك منصبه لغيره(٩٩) ـ إيقاف نزيف خسائر الإعلام، الذى ضلل الشعب لعدة عقود(١٠٠)، بميزانياته المفتوحة سواء لدعم نظام مبارك أو لتغريب الشعب ـ الاستغناء عن آلاف المستشارين من مستشارى السوء لعائلة مبارك والعصبة التى حوله.

---

(٩٩) وبالنسبة للقطاع الخاص، فعلى الدولة أن تطبق نظام الضريبة التصاعدية على أرباح الشركات، وعلى الدخل العام، فمثلًا من يزيد دخله عن نصف مليون جنيه سنويًا يدفع ٢٥٪، وتتصاعد الضريبة ١٪ مع كل مائة ألف جنيه، حتى إذا تجاوز مليون جنيه فى السنة دفع ٣٠٪، وإذا تجاوز ٢ مليون جنيه فى السنة دفع ٤٠٪، حتى يصل السقف الأعلى للضريبة عند دخل ٣ ملايين سنويًّا، أو ما يزيد عليه إلى ٥٠٪. ويسرى هذا النظام على الجميع: رجال أعمال، وأطباء، وإعلاميين، أدباء وكتاب، فنانين، ولاعبى الكرة وغيرهم.

(١٠٠) وبالنسبة للإعلام الخاص، والذى ربما يكون فى بعض الأحيان أكثر خطرًا وأشد ضررًا من الإعلام الحكومى، فالأخير قد تعوقه البيروقراطية وقلة الكفاءة الحكومية المعتادة، بينما الأول يدفعه رأس المال والربح دفعًا، فكثيرًا ما يصبح أسيرًا لرأس المال وللإعلانات، وذلك يمثل سمًا يجرى فى عروقه، كما يجرى سم النفوذ الأجنبى فى عروق الدولة التى ترضخ له. ولقد تبنى الإعلام الخاص الثورة وأهدافها، بل وساهم فى قيامها، فعليه أن يمارس ما تدعو إليه الثورة داخل مؤسساته: العدل الاجتماعى ـ الديمقراطية ـ الشفافية، وإن لم يمارس ذلك، فكيف يدعو إليه؟ ففاقد الشىء لا يعطيه.

وإذا كان السياسيون معرضين للفساد بسبب شهوة السلطة وشهوة المادة، فالإعلاميون مثلهم فى ذلك، ويضاف فى حالة الإعلاميين شهوة الشهرة، وإذا كان زواج السلطة ورأس المال خطرًا على المجتمع، فزواج الإعلام ورأس المال لا يقل خطرًا.

وهناك رجال أعمال يملكون وسائل إعلامية، وإعلاناتهم تهم كل وسائل الإعلام لدرجة أنها تتجنب نشر ما يضرهم، ومنهم من يستطيع التأثير ـ إن لم يكن شراء ـ بعض البرامج ومن يقدمها، وبعض الأعمدة ومن يكتبها.

* جاء فى القرآن ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ ، وجاء ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ . كيف أهملنا سيناء بكل وزنها وثقلها للاقتصاد والأمن القومى؟ . قال اللواء منير شاش محافظ سيناء الأسبق - رحمه الله - إنه قدم حوالى ثلاثين مشروعًا لتنمية سيناء، لم ينظر رئيس الوزراء لأى منها!.

فإذا كان مبارك وعصبته لم يكن يعنيهم سوى مصالحهم الخاصة - وخير إسرائيل كما صرح أوباما - وانحصر تفكير مبارك وعصبته فى جلب السائحين من إسرائيل والاستجابة لطلباتهم الشاذة فى كل أنواع الجنس والمخدرات، مع بعض السياحة الأخرى من أوروبا، حتى إنه منع إقامة جسر بين مصر والسعودية لخدمة التجارة والأعمال والسياحة، فعلى حكومتنا الجديدة تغيير كل ذلك، وتنمية سيناء زراعيًّا وصناعيًّا وتجاريًّا وسياحيًّا، وتكثيف السكان بها.

* وعلى الدولة العمل بكل الوسائل القانونية على استعادة ما منحته الحكومات المتعاقبة فى أكبر عملية سرقة فى تاريخ مصر - المسماة الخصخصة - لأفراد، ومؤسسات قريبة من عائلة مبارك وعصبته.

* ومن أخطر ما يهدد استقلالية مصر وشعبها أن نترك لمؤسسات أجنبية حرية العمل داخل مصر دون دراسة ودون مراقبة جدية لأهدافها، وأهداف وآثار تمويلها للمصريين، سواء كانوا أفرادًا أو أحزابًا، أو مؤسسات وصناديق تمويل وما إلى ذلك.

فالأمر أوضح من الحاجة لبيان أنها تعمل لخدمة المؤسسات الأجنبية: من أرسلها ومن يمولها. وقد يستفيد الشعب المصرى منها، وقد

لا يستفيد، وقد تُسبب أضرارًا بالغة، والأمر أخطر من أن يُترك كما كان فى عهد مبارك، بنظمه ولوائحه.

* ومن أخطر أشكال التبعية الثقافية والمادية التى أصابتنا، ما جرجرتنا إليه ثقافة وال ستريت الأمريكية من حمى الاستدانة للاستهلاك وللمظهرية الزائفة، مما يتعارض مع ثقافتنا الإسلامية، ويتعارض أكثر مع ثقافتنا المسيحية. فعلى الدولة مع مؤسسات الفكر الخاصة كبح جماح جنون الاستهلاك وإعلاناته التى تجعل من التضليل والتزييف والإغراء الفج أسلوب تخاطب يومى معتاد.

* وعلى الدولة أيضًا - مع المؤسسات الأهلية - ابتداع نظم تمويل واقتصاد إسلامية، وقد سبقت ماليزيا دول العالم الإسلامى فى ذلك، وتسابقت إليها صناديق ومؤسسات التمويل التى تريد اتباع النظام الإسلامى[١٠١].

* ولا حاجة بنا لتكرار محورية الشورى أو الديمقراطية فى حياتنا كلها، فالاستبداد يصنع أنصاف آلهة، وأشباه عبيد، وهذا ما جاء الإسلام لهدمه.

* جاء فى القرآن ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:٩]، وجاء فى الحديث «أفضل الجهاد قولة حق عند سلطان جائر»، وجاء «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فلما سأله الصحابة كيف ننصره وهو ظالم؟ أجابهم «بأن نكف يده عن الظلم».

---

(١٠١) أصدرت الشروق الدولية كتاب «التجربة الماليزية» فى ذلك المجال، بقلم نوال عبد المنعم بيومى، وتقديم د. رفعت العوضى.

لو اتبع المسلمون شرعهم لمنعوا ظلم صدام حسين لشعبه، ولمنعوا غزوه الكويت، أو لطردوا بقوتهم قواته من الكويت، ولو فعلوا ذلك لما غزت أمريكا بقواتها العراق، ولو منعوا القذافى من ظلم شعبه لما وصلنا لما نحن فيه الآن، ولنتدبر كيف أن أمريكا والناتو يقومون بما كان يجب على القوات الإسلامية القيام به، ثم تحقق أمريكا ومن معها الفوائد الآتية:

١ - تتقاضى ثمنًا غاليًا عن عملها العسكرى من دول البترول العربية، فتخرج بمكاسب مالية باهظة.

٢ - تكتسب خبرة من عملياتها العسكرية، لتطور بها أسلحتها وخططها.

٣ - تتخلص من أسلحتها القديمة.

٤ - تتخلل الدولة والمجتمع الليبى.

٥ - تفرض شروطها على حكومة ليبيا القادمة.

ويسكت العرب المسلمون عما يحدث فى سوريا، وما يحدث فى الصومال، وبذلك يهيئوا الفرص لكل الطامعين.

* ويجدر بنا - خاصة ونحن على مشارف انتخابات برلمانية وانتخابات رئاسية - أن نحذر من خيانة الله ورسوله، فنختار الأفضل، ليس الأقرب ولا من نرجو منه منافع خاصة، أو أهداف خاصة على حساب الصالح

العام[١٠٢]، فقد جاء فى الحديث «من ولى من أمر المسلمين شيئًا فولى رجلًا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله».

* كذلك يجدر بنا أن نحذر من التزوير الذى قرنه الحديث بالشرك «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وقول الزور» حتى قال الصحابة يا ليته سكت.

* وعلى أصحاب العمل السياسى الإسلامى أن يتحملوا مسئوليتهم - مع بقية القوى السياسية - فى تأليف ومزج كل أطياف العمل السياسى فى مصر، من أقصى اليمين لأقصى اليسار، وألا ينزلقوا فى معارك جانبية كل هدفها إخراج مصر من مسار الإصلاح، وأن يعوا تمامًا، هم وكل الطيف السياسى فى مصر، أن بكل من إسرائيل وأمريكا طيفًا سياسيًّا وثقافيًّا أكثر اتساعًا وتناقضًا من الطيف السياسى المصرى، ولكنهم يعملون معًا، ولا يتبعون أساليب الإقصاء والإبعاد.

* وأن ينتبهوا للخطة العالمية لنشر الإسلاموفوبيا، ليس فقط فى أمريكا

---

(١٠٢) لماذا اختار مبارك عاطف عبيد رئيسًا للوزراء؟ لم يكن للرجل فى أى وقت رؤية، ولم يزعم أحد له إنجازًا، فضلًا عن أنه مدمن، فهل هذا سبب اختياره؟! بالإضافة لحثه على مشروع التوريث؟! ومن طرائف حِكم عبيد ورؤيته تصريحه الذى قال فيه: إذا أردنا دخول السوق الأفريقية، فأفضل السبل لذلك رجال الأعمال اللبنانيين!.
كذلك لماذا اختار أحمد نظيف رئيسًا للوزراء؟ لم يمارس أى نشاط سياسى قبل اختياره، ولا حتى بعده، وهو عديم الرؤية السياسية من قبل ومن بعد، وقد ذهب لواشنطون فقال: مصر دولة علمانية - الشعب المصرى غير مستعد للديمقراطية - لو تركنا الانتخابات دون تدخل (عام ٢٠٠٥) لزادت حصة الإخوان على ٢٥٪! هل كان الرجل يقدم مسوغات تعيينه لواشنطون؟ تلك المسوغات هى الجهل، وازدراء الشعب المصرى والتكبر عليه والافتخار بالتزوير والحرب على الإسلام السياسى!.

والغرب، بل وهنا فى الشرق الأوسط، وفى مصر بالذات، وذلك يحتاج لخطة مواجهة حكيمة شاملة، بعيدًا عن انفعالات اللحظة والأحداث.

* كذلك على أصحاب العمل السياسى الإسلامى أن يعوا أن تقنين الشريعة ليس هدفًا بذاته، بل هو وسيلة لبناء المجتمع الذى قال القرآن عنه﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، وكذلك الحكم ليس هدفًا بذاته، بل هو وسيلة بناء ذلك المجتمع، ورُبَّ سياسى خارج الحكم أنفع وأفيد لبلده وأكثر تأثيرًا من حاكم!.



هذا الكتيب

يقدم هذا الكتيب مدخلا مبسطا ومختصرا للتعرف على ثقافتين، أو طريقتين للحياة، يتناولهما الاعلام المصرى بصورة شبه يومية: الليبرالية... والشريعة الإسلامية.

ما هو السياق الذى نشأت فيه الليبرالية وتطورت؟ ما هى مجالاتها المتعددة فى الاقتصاد والسياسة والثقافة، فى أوروپا وفى أمريكا؟ وأى شكل وأفكار تسودها اليوم؟

أما الشريعة الإسلامية فى مصر، فمتى بدأ انحسارها؟، ومتى بدأت المطالبة باستعادتها؟ وهل هى مجرد أحكام وحدود أم طريقة حياة لها أهدافها وآفاقها؟ وأين تقع الأحكام - والحدود - فيها؟

